شكري المبخوت

السيرة العطرة للزعيم

رواية



شكري المبخوت

السيرة العطرة للزعيم

الكتاب: **السيرة العطرة للزعيم** (رواية)

تأليف: **شكري المبخوت**

عدد الصفحات: 176 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-941-37-1

رقم الناشر: 358 /20-142

الطبعة الأولى: 2020

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

لبنان: بيروت – بئر حسن – بناية فارس قاسم (سارة بنما) – الطابق السفلي

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة –2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) – جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.com

شكري المبخوت

السيرة العطرة للزعيم

رواية



فاتحة

كان الوحيد الذي يستحقّ زعامة هذا الشعب. لكنّ رياح التاريخ في بلادنا تهبّ دائما عكس مصلحتها.

كان الوحيد الذي فهم روح هذا الشعب العظيم. شعب استمرأ الخضوع لكلّ مستبدّ يمسك بخناقه كالدجاجة، شعب إذا شعر بالاختناق أكثر ممّا يجب ينتفض في النزع شبه الأخير (يسمّي المؤرّخون ذلك ثورات) ثمّ يسلم أمره لأوّل طامح إلى السلطة، شعب إذا أتيحت له المشاركة في انتخاب رئيسه يصوّت في اللحظة الحاسمة لمستبدّ جديد.

كان الوحيد الذي فهم روح هذا الشعب إذ هو منحدر من أعماقه، لم يأت من بلديّة العاصمة ذوي الدماء الزرقاء ولا من السواحل التي سكنتها روح التجارة وروائح رأس المال العفن.

من روح هذا الشعب تشرّب قيمه وأسلوبه في العيش والتعامل وحتّى في البذاءة المحبّبة إلى النفس. وجعل الله له نخبة من إخوان الصفاء يشدّون أزره.

لقد كان مهديّنا المنتظر لكنّه قصف في المهد.

وهذه الورقات من مناقبه وسيرته العطرة الفيحاء الزكيّة تستعيد نتفا من زعامته الخالدة.

الغريب

1

كنّا يومها في المدرّج الذي يغصّ كلّ يوم خميس من العاشرة والنصف إلى الحادية عشرة والنصف صباحا بالطلبة من جميع الاختصاصات. فدرس مؤرّخنا الاستثنائيّ ذائع الصيت في أرجاء الجامعات يجذب إليه الجميع لينصتوا في سكون يصل حدّ خشوع إلى هذا الذي يروي قصّة البلاد من وجهة نظر المهمّشين الذين أهملهم التاريخ الرسميّ المكتوب. فقد كان الأستاذ الدكتور ماركسيّا قادما من أحد أرياف البلاد التي لم تجد لسانا يتحدّث باسمها غير لسانه حديث العالم العارف المدقّق الثبت المحقّق المقنع الذي يلقم أعداء الشعب في كلّ درس أكواما من الحجارة.

كنّا نسمّيه مؤرّخ الشعب الكريم وأحيانا أخرى مؤرّخ أولاد الحفيانة. فدروسه دروس عن النكد والخيبات والعجز والإخضاع والبؤس والتعاسة والشقاء والغمّ. لا طرائف فيها تشدّ السامعين ولا أحداث مبهجة تثيرهم. كان الواحد منّا إذا فرغ من الإنصات إلى الدرس وغادر المدرّج تلفّه غلالة من أسى كأنّه عاش داهية من الدواهي ويشعر بضيق خانق وانقباض شديد كأنّ ساعة موته قد حانت.

لكنّ درسه كان بالنسبة إلينا درسا تطبيقيّا للنظريّات التي حفلت بها ساحات النقاش والصراع في الجامعة يرى فيه أبناء اليسار بمختلف طوائفهم دليلا إضافيّا على عبقريّة التحليل الماركسيّ ومآلات الصراع الطبقيّ الموعودة ويرى فيه الإسلاميّون أدلّة قويّة على كفاح المستضعفين ضدّ المتغرّبين الذين غرسهم الاستعمار الفرنسي، أقرب شيطان كبير إلينا، ليحكموا البلاد بعده فيكونوا وكلاء فرنسا. أمّا القوميّون فإنّ درس الأستاذ يؤكّد لهم أن الصراع لن يحلّ بأنظمة إقليميّة رجعيّة عميلة بل بوحدة عربيّة تحقّق الحريّة والاشتراكيّة بضربة واحدة. وحدهم بعض طلبة التجمّع ينصتون في غير حماس لكنّهم يسجّلون كلّ شيء حتّى تكون

تقاريرهم عمّا قيل في الدرس دقيقة ويتنافسون حتّى تكون ضافية شافية وافية بالغرض. هكذا كان الطلبة يقولون.

يومها، بعد أسبوعين أو ثلاثة من بداية السنة الجامعيّة، شرع الأستاذ يملي عنوان درسه الجديد إثر مقدّمات تمهيديّة في مفهوم التاريخ الاجتماعيّ والمنهج والنظريّة وبسطة عامّة عن أهمّ الوقائع في تاريخ البلاد ودلالاتها.

ما إن قال الأستاذ: «عنوان درسنا هذه السنة هو ثورات الفلاّحين في تونس» حتّى سمع الطلبة من مدخل المدرّج في الجهة العليا المقابلة لمكتب المحاضر صوتا يحتجّ في حدّة. كان صوتا جهوريّا كأنّه خارج للتوّ من بئر عميقة مهجورة، فيه رنّة حلوة، صوت ممتلئ غليظ لا يخلو من بحّة خفيفة لا شكّ أنّها من تأثير سجائر رخيصة.

حين التفتوا للتثبّت من مصدر الصوت وصاحبه رأوا شخصا نحيفا فارع الطول يتلفّع بمعطف متقادم أدار على رقبته كشكولا طويلا وغطّى الرأس بقلنسوّة شبيهة بما اشتهر به تشي غيفارا. كانت لحيته قصيرة لم يحلقها منذ يومين أو ثلاثة. في عينيه الخضراوين بريق يلمع. وقف متشامخا متعاظما.

قال:

- لا وجود لثورات في العصر الحديث غير الثورة الفرنسيّة والثورة الروسيّة والثورة الإيرانيّة ما عدا ذلك انتفاضات...»

من يجرؤ على مقاطعة الأستاذ؟ من هذا الذي يكذّب رجل العلم الصافي؟ من هذا الذي يناقش العنوان أصلا؟

رفع الأستاذ رأسه متطلّعا لصاحب الاعتراض. لمحه من بعيد فصوّب نظره إله. كانت نظراته لا تخلو من اندهاش. صمت متفكّرا. نزع النظارتين. وضعهما بتؤدة على المكتب.

لا شكّ أن ما قاله الطالب (هل كان طالبا؟) قد فاجأه.

أصبح المدرّج يضجّ بتهامس ما انفكّ يعلو ليستحيل جلبة. ارتسمت بعض الابتسامات على الشفاه. عمّت الضوضاء وانتشر التململ في الصفوف جميعا. لكنّ الزائر الغريب الذي لا أحد يعرفه فيما يبدو ظلّ واقفا كصنم إغريقيّ.

رفع الأستاذ رأسه. ألقى نظرة على الصفوف وقد علت وجهه ابتسامة لا أحد يعرف هل كانت دليلا على الرضى أو السخرية.

ضرب على المكتب طالبا الصمت. سكنت الجلبة. أشار بسبّابته صوب الزائر. قال له:

– فعلا ما قلته صحيح.

نظر إلى الطلبة قائلا:

– نغيّر عنوان الدرس إلى «انتفاضات الفلاّحين في تونس»...

تحرّك الصنم. تجاوز الطلبة الجالسين على الأرضيّة متّخذين محفظاتهم مكاتب واتّخذ له مقعدا قرب زميلة كانت جالسة في مقاعد الصفّ الأخير. دفعها بشيء من العجرفة فتحرّك الصفّ كلّه. أخلوا له المكان ليجلس بشكل مريح.

أخرج كراسا صغيرا من جريدة كانت بين يديه وشرع يسجّل تقييداته.

2

بدأت التخمينات بعد الدرس مباشرة. هل هو طالب جديد؟ لكن لم ير أحد وجهه في السنتين المنقضيتين فكيف وصل إلى السنة الثالثة؟

ارتاب المرتابون كعادتهم. فالنظام يدسّ دوما جواسيسه في الجامعة وتتنافس مختلف الأجهزة الأمنيّة على رفع التقارير عن كلّ صغيرة وكبيرة في الكلّيّة: الأمن الجامعيّ والإرشاد السياسيّ والمخابرات العامّة والأمن الرئاسيّ وغيرها ممّا يحدسه الطلبة حدسا ولا يعرفون له اسما.

هكذا تهامس قادة الحركة الطلاّبيّة من مختلف الفصائل.

إذن لا بدّ لمخابراتهم أن تحقق في أمر هذا الزائر المشبوه. كلّفوا بعض أتباعهم بمراقبة الغريب.

رأوه يتّجه صوب المشرب. اشترى قهوة سوداء وانزوى في الساحة القريبة يترشّفها مدخّنا. لم يكن ينظر إلى أحد. ركّز عينيه على نقطة في الفراغ كالمتأمّل. ظلّ على تلك الحالة ساعة أو بعض الساعة.

اقترب منه رسول أحد الفصائل اليساريّة. حيّاه بأدب فلم يردّ التحيّة كان غارقا في تأمّلاته. جذبه إليه من معطفه محتجّا على احتقاره له. فلم يحرّك ساكنا. تمتم بكلام غامض دون أن يردّ الفعل. اقترب منه رفيق له استشعر احتمالات تطوّر الوضع. فقد كان الرسول المستطلع لأمر الغريب قصيرا نحيفا تكفي صفعة كي توقعه أرضا. انتزع يديه من رقبة الغريب وأبعده عنه دون أن يشتم ويسبّ.

عاد إلى تأمّلاته في الفراغ. أطفأ سيجارة كانت بين يديه. وغادر الكليّة.

لكنّ التحقيقات الأوّليّة أفضت إلى بعض القرائن المفيدة.

وجه مصفرّ اصفرار مرض يصعب تحديده.

أسنان يغطّيها القلح الذي مأتاه ولا شكّ نوعيّة الماء الذي يشربه، بما يدلّ على أنه من أبناء ريف لم تصل إليه دولة الاستقلال ولا شركتها لتوزيع المياه.

جفنان متهدّلان وبطء في الحركة ينمّان عن إرهاق.

رائحة كريهة تصدر منه أخبرت عنها الزميلة التي جلس حذوها مما ألجأها إلى إخراج قارورة عطرها وبخّ قطرات منها في كفيها كي تستطيع التقليل من نتونة الجالس قربها.

أكّد ذلك الرفيق حين مسكه من المعطف محتجا.

3

لم يكن من الممكن أن يتعرّف الطلبة على الغريب في قائمة المسجّلين في درس الأستاذ الذي لا يقوم بالمناداة على الطلبة ولا يقدّم إليهم ورقة الحضور للإمضاء. فدرسه مفتوح لكلّ من يرغب في الحضور. لذلك إذا صادف أن مكّن الطلبة من تسجيل حضورهم فإنّ من لا ينتمي إلى فريق الدرس غير مجبر على إضافة اسمه.

رغم ذلك ذهب أحد الطلبة القوميّين إلى صديق له بمصلحة شؤون الطلبة مستطلعا. استخرج له نسخة من قائمة المسجّلين بشهادة التاريخ الاجتماعيّ وفحصها مع عدد من الزملاء. عرفوا الجميع تقريبا عدا أربعة أسماء. لكنّ هذه القرينة غير كافية ما لم تدعّم بملفّ الطالب، أهو ملزم بالحضور أم يعيد السنة أم هو من المرسّمين غير المكلّفين بالحضور لأسباب مهنيّة.

اتفق الطالب مع صديقه في الإدارة على الاطّلاع على ملفّات الطلبة الأربعة الذين لم يعرفوهم. لم يكن ذلك ممكنا، حفاظا على سريّة الملفّات، ألّا بعد انتهاء الدوام الإداريّ ومغادرة جميع العاملين في مصلحة شؤون الطلبة.

كانت النتيجة مخيّبة للآمال. أحدهم راسب في شهادة التاريخ الاجتماعي منذ أربع سنوات. والثاني معفى من الحضور بسبب اشتغاله معلّما بمنطقة ريفيّة بعيدة عن العاصمة. والثالث والرابع كانا يتغيّبان عن جميع الدروس ويكتفيان بإجراء الامتحانات آخر السنة.

لكنّ أهمّ شيء في هذا التحقيق مع الإدارة أن صورهم جميعا لا تشبه الغريب.

دفعت هذه النتيجة الثابتة الموثّقة إداريّا قادة الفصائل المختلفة إلى الإجماع على أنّه أمنيّ دسّته المخابرات. كان القرار واضحا بعد أن التقوا، وهو ما لم يحدث من قبل، في قاعة فارغة من قاعات الدروس بعد أن جاءهم الطالب القوميّ بنتيجة معاينة الملفّات في الإدارة.

4

بدأت التحقيقات تثمر. أحد طلبة اللغة والآداب العربيّة رآه أمس في حوالي الحادية عشرة ليلا في أدواش المبيت الجامعيّ.

وضع ملابسه جميعا بما في ذلك المعطف على باب آخر غرفة من غرف الاغتسال. كانت تفوح منها رائحة كريهة غمرت الجوّ. سمع ماء دافقا ينهمر وصوتا أجشّ يردّد أغنية بدويّة. لم يشأ أن يدخل للاستحمام قبل أن يعرف المغنّي وصاحب الأدباش.

تعمّد أن يظلّ في القسم المخصّص لدورات المياه المجاورة للحمّام يسترق السمع والنظر.

توقف انهمار الماء وإن ظلّ الصوت يترنّم بأغنية بدويّة أخرى. وحين اقترب رأى ما أذهله.

قامة فارعة الطول تتقاطر منها المياه، عارية تماما دون منشفة تغطّيها. كان صاحبها يمسح جسده بصفحات جرائد تتشرّب الماء ثمّ يلقي بها كيفما اتفق. رآه يعيد ملابسه نفسها ويهمّ بالخروج حاملا في يديه المعطف والكشكول وقلنسوة غيفارا.

اختفى المتلصّص في قسم دورات المياه وغادر الغريب الحمّام.

لكنّ المعلومة الأهمّ أنّه اتّجه صوب غرفة في آخر رواق الطابق الثاني من المبيت، ودخل إلى إحدى الغرف الثلاث على اليمين. فقد كانت الفوانيس كالعادة مكسّرة ولا أضواء تمكّن من التثبّت.

إذن فالخبر اليقين يوجد هناك. ولا بدّ من التوجّه إلى سكّان تلك الغرف الثلاث.

5

في الطابق الثاني من المبيت الجامعيّ تحرّكت فرق للتحقيق بعد المعلومات التي وصلت إلى القيادات الطلاّبيّة حول استحمام الغريب أمس ليلا.

كان المحقّقون حذرين. أخذوا يطرقون أبواب الغرف الثلاث في الجهة اليسرى من رواق الطابق الثاني. تحدّثوا إلى ساكنيها بحذر. أوهموهم في البداية أنّها زيارة عاديّة. لم يجدوا جديدا عند قاطني هذه الغرف.

استخدموا أوّل الأمر طريقة المراقبة سواء بالتنصّت على الغرفة التي يسكنها الغريب، أو بتكليف من يستطلع الصاعدين إلى الطابق أو النازلين منه، أو بتعيين مراقبين يتداولون على ثقب المفتاح في باب الغرفة المقابلة.

أفضى بهم استطلاعهم للقاطنين في الغرف إلى التعرّف على أصحاب الغرفتين المجاورتين. طالبان من الفرنسيّة في الغرفة 233 وطالبان من الأنكليزيّة في الغرفة 235. فتكون غرفة الغريب بالضرورة رقم 237 وهي الأخيرة على اليمين في الطابق الثاني. لكنّ الأغرب من ذلك ألّا أحد من سكّان الطابق كلّه يعرف من يقطن هذه الغرفة الأخيرة. فالمعلومة الوحيدة التي وصلت إلى المحقّقين كانت أقرب إلى الترجيح منها إلى اليقين.

فقد أنبأ كارادونا (وهي كنية لزميل نحتها له أصدقاؤه على وزن اسم مارادونا اللاّعب الشهير) فريق التحقيق الداخليّ بالمبيت أنّه لم يطلب أحد زميلا بهذه الغرفة. فقد كان كارادونا يقطن الغرفة 222 في وسط الرواق قبالة الهاتف الجماعي الوحيد الذي تنقل منه عبر موزّع الهاتف المكالمات الخارجيّة. وكان يهرع إليه كلّما رنّ ليدعو من توجّه إليه المكالمة كي يردّ عليها.

إنّه الوحيد الذي يعرف الجميع بأسمائهم وأسماء من طلبوهم في الهاتف، حتّى أن الطلبة الجدد كانوا يخالونه مكلّفا من الإدارة بمهمّة مساعدة موزّع الهاتف في الطابق الثاني.

6

كانت لجنة التحقيق الداخليّ أمام لغز عليها حلّه.

من يقطن هذه الغرفة؟ هل هي فارغة رغم كثرة مطالب السكن التي تصل إلى اتحاد الطلبة ولجنة الحيّ والرفاق المناضلين من أجل حقّ الطلبة في السكن؟ أتكون السلطة قد وضعت فيها آلات للتجسّس على الطلبة؟ كيف فات الطلبة أن يعرفوا من يقطن تلك الغرفة رغم أنّهم يتلصّصون باستمرار على بعضهم البعض؟

بدأت الهواجس الأمنيّة تأكل لجنة التقصّي في الأمر. هذا يضيف الماء والآخر يضيف الدقيق كما لو أن وزارة الداخليّة انتقلت كلّها إلى هذه الغرفة.

تفتّق عقل أحدهم على فكرة بسيطة. لماذا لا نخلع باب الغرفة؟

تناسلت السيناريوات الكارثيّة. ماذا لو وضع فيها بالتواطؤ مع الإدارة وعمك البرني العسّاس أعوان أمن لحماية التجهيزات الأمنيّة وكانوا مسلّحين؟ ماذا لو اتّهم الطلبة بخلع مقرّ من مقرّات الإدارة بما يجعلهم عرضة للمحاسبة القانونيّة من أجل شيء غير مؤكّد؟ الحل ممكن وهو وضع كاغولات على الوجه يتقنّعون بها؟ ولكن من يضمن ألّا يشي بهم الطلبة العاديّون بعد ذلك؟

اقترح أحدهم أن يكون الهجوم على الغرفة 237 بعد أن ينام الطلبة جميعا، مع الثانية أو الثالثة صباحا مثلا؟ لكن من يضمن نومهم جميعا وكثير منهم يقضّي الليل في السهر للتحادث في الغرف أو للعب الورق أو للسكر أو للتهجّد وما إلى ذلك من أنشطة الليل؟

ذهبوا بعيدا في التخيّل إلى أن بلغتهم معلومة حاسمة في مسار التحقيق مع حوالي الساعة السابعة مساء. فقد ركض كارادونا إليهم طارقا باب الغرفة 208 بقوّة. دخل يلهث ليعلمهم بأنّه سمع أنغام ناي حزينة تتصاعد من الغرفة 237. حينها بانت المسألة. ففي الغرفة سكّان ولا بدّ من معرفتهم.

التفت أحد المحقّقين إلى بقيّة أعضاء الفريق قائلا:

– نطرق الباب بصفة عاديّة ونزعم أنّنا أتينا لتحيّة زميلنا الجديد... نرسل وفدا يحمل بعض الثمار والمشروبات لنعبّر باسم لجنة الحيّ الجامعيّ عن ترحابنا به.

أسرع أحدهم إلى المطعم الجامعيّ لأخذ بعض الثمار فقد كان أحد الطبّاخين صديقا له لأنّهما من قرية واحدة. وجرى الثاني إلى حانوت بيّك إمحمّد لشراء علبة عصير.

7

كانوا خمسة أنفار. توقّفت أنغام الناي التي حدّثهم عنها كارادونا حتّى ظنّوا أنّه كذب عليهم. ولولا حركة في الغرفة سمعوا خلالها غلقا قويّا لباب الخزانة على الأرجح لاتّهموه بالكذب والتخيّل.

تقدّم أحدهم وطرق الباب طرقات ثلاثا في تهذيب كبير. كانت تشبه طرقات من يزور اجتماعا سرّيّا في إحدى الغرف حيث تعقد الاجتماعات السياسيّة.

لا مجيب.

أعاد الطرق فسمع الصوت الجهوريّ الجشّ نفسه يردّ:

– منهو؟

– افتح يا زميل... جينا نتعرّفو عليك...

مرّت لحظات صمت بدت للمجموعة المتحفّزة لمعرفة ساكن البيت طويلة متطاولة. ثمّ رأوا باب الغرفة ينفرج ويظهر منه رأس الغريب ينظر إلى الوجوه الخمسة مستغربا، ثم قال مستفهما:

– آش تحبّوا؟ ماو لا باس؟

– ما فمّة كان الخير... جينا نرحّبوا بيك كيما العادة مع الزملاء الجدد

– وصلت مرحبا بيكم

وهمّ بغلق الباب إلّا أن أحدهم وضع رجله في فتحة ويده على المقبض قائلا:

– جبنالك هديّة ما تردّهاش علينا قدامنا عام كامل متاع عشرة ومعرفة طيّبة يا زميل.

8

روى بعد ذلك من دخل الغرفة من لجنة التحقيق وجلس إلى الغريب كلّ التفاصيل المفيدة وغير المفيدة.

كانت الغرفة فارغة إلّا من سرير وحشيّة تناثرت عليها أدباش الغريب (لم يعد غريبا فقد كان اسمه العيفة) برائحتها العطنة. على الأرضيّة في الركن الأيمن المقابل لباب الغرفة كانون صغير عليه برّاد شاي أزرق اللون وكأس طرابلسي مليء ببقيّة حشائش الشاي.

بعض الكتب الموضوعة على الدرج في الجهة اليسرى حيث وضع السرير قبالة النافذة مثل جميع الغرف الأخرى.

في الجانب المقابل للسرير أسطل فارغة (بين الخمسة والسبعة حسب الروايات) ومكانس ومماسح وخيش موضوعة كما جاء واتّفق، وقوارير جافال وعلب مسحوق غسيل وموادّ تنظيف أخرى. على الحائط فوقها رصّفت بلوزات بيضاء معلّقة على معلاق.

كانت رائحة الغرفة عطنة نتنة غافّة. تحقّق منها بعض الشباب الذين زاروه. كانت قريبة ممّا يلتصق بالأجساد من رائحة رماد حطب الصنوبر بعد الاشتعال. يعرفها الخبيرون بالروائح لدى سكّان الجبال والمناطق الجبليّة الباردة.

تثبّتوا من ملامحه: عينان خضراوان، شعر أشقر، وجه مشرب بحمرة. كان سيبدو وسيما لولا أنّ كلّ شيء فيه يميل إلى الضخامة والتورّم: عيناه جاحظتان، فكّاه كبيران متهدّلان إلى الأسفل، أنفه جسيم بارز إلى الأمام، خدّاه غائصان يبرزان عظام الوجه. حين يمشي برجليه الكبيرتين يهقّ هقّا كالمتعوّد على الطرقات الوعرة والأودية.

كان العيفة أكثر الوقت صامتا لا ينظر إلى الزوّار ويجيب باقتضاب عن أسئلة الزملاء أعضاء لجنة التحقيق. لم يخف تبرّمه من حضورهم وإن اصطنعوا معه اللطف.

حين أهدوه الثمار وعلبة المشروبات وضعها على الطاولة الصغيرة وقرّبها من السرير ليصيب منها زوّار

الساعة السابعة. لم يمدّ أحد يده ليتناول شيئا رغم إلحاح العيفة.

لم يشكرهم حتّى عن مضض، لكنّه وعدهم بهديّة في الحال على سبيل الشكر كما فهموا. وقف كالملسوع واتّجه مسرعا إلى الخزانة. فتحها وعاد بقصبة وقال:

– ما نعرف كان القصبة هاني باش نهديلكم مقطوعة من بلادي...

وطفق ينفخ في القصبة نغما على الصبا يمزّق القلب سرعان ما انقلب راقصا. فلم تجد الجماعة بدّا من إظهار التفاعل بالتصفيق وهم يتغامزون. فقد كان العيفة وهو بنفخ في القصبة يغمض أكثر الوقت عينيه. وسرعان ما انطلقت الجماعة في رقصة بدويّة تناسب الأنغام التي كان العيفة يعزفها.

لّما أنهى العزف صفّق له الجميع وعانقوه مهنئين إيّاه بإبداعه محتملين زناخة رائحته. فانفرجت أساريره واطمأنّ إليهم.

انتهت وصلة التعارف المنافق والعناق المفتعل والرقص الساخر فأخذوه معهم إلى المطعم باعتباره زميلا جديدا وصديقا.

9

في الأثناء زارت لجنةٌ مدير المبيت مستخبرةً عن هذا الوافد الجديد. ذهب إليها ممثّل الطلبة بالحيّ والمسؤول عن المكتب الفيديرالي بالكلّيّة. فأغلب سكّان هذا المبيت الجامعي (وكنا نسمّيه حيّا جامعيّا تجوّزا) هم من طلبة الكلّيّة.

في الطريق، كانا يزوّران في نفسيهما كلاما عن إسكان بوليس سياسيّ في المبيت أو طالب تجمّعي سيكون جاسوسا عليهم. وبحسب ردّه سيكون ردّ الفعل: إضرابات واعتصامات إلى أن يتمّ تحرير المبيت من جراثيم النظام العميل وبوليسه الخطير.

كان المدير التجمّعي سريعَ الاستجابة لمطالب الطلبة مهما كانت كلّما واجهوه بالإضراب عن الطعام أو بالاعتصام في مكتبه أو باجتماعات مطوّلة حول مشاكل يبالغون في تضخيمها. فقد علموا أنّه يطمح إلى منصب وال ويريد أن يبرهن للسلطة والحزب بالخصوص على أنّه قادر على حلّ المشاكل مهما كانت معقّدة.

ولكنّه، وهذا الأهمّ، كان مريضا بالسكّري والقلب، سريعَ الغضب ولا يحتمل الاجتماعات المطوّلة. لذلك كان أسلوب الطلبة في قضاء مآربهم هو إطالة الاجتماعات التفاوضيّة حتّى يستسلم حين يشعر بانهيار قدراته البدنيّة.

كانوا مرّة في اجتماع معه وقد اعتصموا لمدّة أربعة أيّام. طال النقاش حول مطلب وحيد يتكرّر في بداية كلّ سنة عندما تقترب انتخابات المجالس العلميّة فرنّ الهاتف في مكتبه. طلب منهم الصمت لحظة. وسمعوه يقول:

- مرحبا معالي الوزير شرفتنا سيّدي (...) لا أبدا الجوّ رايض (...) لا توة أنا في الإدارة وكنت نعمل في جولة في المبيت والحالة عاديّة (...) مستحيل سيدي كان موش وقتك ثمين راني قتلك إيجا شوف بعينيك (...) ماك تعرف بعد ساعات الأوخيّان في الأمن توصللهم تقارير غير دقيقة (...) أنا متأكّد (...) ربّي يفضلك لينا سيدي، اتهنّى الأمور خمسة على خمسة...»

وضع السمّاعة والتفت إلى ممثّلي الطلبة قائلا:

- قداش من واحد تحبّوا تسكّنوهم؟

- 12 طالب و10 طالبات.

- تعرفوا اللي أنا ما عنديش بيوت... أما اللي نجّم نعملوا نجيبلكم سرّة وتولّي البيوت فيها ثلاثة طلبة... ما نحبش نفرض على حتّى طالب يسكن معاه زميل زايد... حدّدولي أرقام البيوت، نحب 22 بيت، ومن هنا لغدوة العشيّة المطالب 22 اللي وصلتني أسماؤهم نسكنوهم ونقصّوا الهدرة بشرط فكّوا الاعتصام في بهو الإدارة توّة توّة... تعرفوا اللي أنتوما ولادي وما نحبش الأمن يتدخّل وهاو قدامكم آش قلت للسيّد الوزير.

تهدّل صوته واحمرّت عيناه من أثر دمع كان يخفيه وتحرّكت جلدة ذقنه. قدّر ممثّلو الطلبة أنّه انهار أو بدأ ينهار، ولم يحسبوا حسابا لقدراته المسرحيّة. فأراد أحدهم رفع العدد إلى خمسين من باب المزايدات. انتظر ردّ فعل المدير فلم يصرخ ولم يحتجّ. وقف كالجنّيّ الطالع من قمقم انهياره وتكلّم بهدوء وثقة في النفس:

- تعرفوا كيفاش؟ ولينا نلعبوا في لعب أولاد صغار... أنا نعاون فيكم باش تربحوا انتخابات المجالس العلميّة وأنتوما تزايدوا عليّ. راني مانيش درويش ليكم... السياسة عملتها قبلكم.

عمناول وافقت على خمسة أكهو والسنا حققتو أكثر، كيف يجيكم غيري برّاو وقتها وريوني آش تنجموا تعملوا... توة تقولولي يا 22 طالب يا لا حلّت لا ربطت. مازالولي عامين على الأنتريت...»

نظر بعضهم إلى بعض وابتسموا موافقين على الصفقة. كانوا يعتقدون أنه غرّ ساذج فاكتشفوا سذاجتهم.

حين ذهبوا إليه مستخبرين عن الغريب قهقه ملء شدقيه قبل أن يشرح لهم المسألة.

كانت الغرفة 237 مخصّصة لعاملات التنظيف في المبنى. فقد بنيت في الأصل لذلك وإن استعملها بعض المديرين قبله في إسكان الطلبة إثر تزايد عدد الراغبين في السكن الجامعيّ. لكنّ نقابة العملة تدخّلت فارضة تحسين ظروف العمل وإيجاد مكان لتغيّر فيه العاملات لباسهنّ ووضع الكنّاسات والأسطل وموادّ التنظيف وما إلى ذلك ممّا يحتجن إليه، وذلك بعد توقيع نقابة العملة لاتفاق مع وزارة التعليم العالي بضغط من الاتحاد العام التونسي للشغل.

لكنّ الطالب الجديد جاء بتوصية من الولاية. فهو من أبناء العائلات المعوزة وكان يتداوي في المستشفى فجاء متأخّرا. فقد أجبره المرض على الانقطاع عن الدراسة مدّة سنتين. ولمّا كانت حالته حالة إنسانيّة طلب مدير المبيت من نقابة العملة السماح له بالسكن في الغرفة فوافقت العاملات.

حار ممثّلو الطلبة جوابا وأكبروا ما فعله المدير. وهذه من المرّات القليلة التي لم تحتج منهم إلى نضال من أجل إسكان طالب معوز.

ميلاد قائد

1

لم يعرف العيفة كيف وجد نفسه بين ليلة وضحاها يسكن غرفة جديدة مع طالبين ينحدران من دشرتين قريبتين من دشرته.

طرق عليه أحدهما يوما الباب. دعاه إلى زيارته في غرفته للتعارف معبّرا عن إعجابه بتدخّله في درس الأستاذ وتدقيقه للفرق بين الثورة والانتفاضة. أفهمه أنّهما ينتميان إلى منطقة واحدة ويشتركان في الأفكار والتصوّرات والمصير.

كان العيفة ينظر إليه نظرة بلهاء. يسمع ولا يردّ. يركّز نظره على نقطة في الفراغ كعادته. لم يفهم الكثير مما قاله له. حدّثه عن احتقار أبناء الفلاّحين، وعن الحياة المرفّهة، وعن ضرورة التضامن، وعن الحياة التي لا تعاش مرّتين، وعن متعة الحياة والتجربة الوجوديّة وعن أشياء كثيرة لم يفهم منها شيئا.

ظلّ يرنّ في أذنيه ما قاله له:

– أنت شخصيّة كاريزماتيّة، تصلح قائدا لنا

لم يفهم شيئا. كانت الكلمة مفاجئة له فلم يدرك معناها. ولم يهتمّ بإدراك معناها فيما بعد.

لكنه كان متأكّدا أنّها من باب المدح. فجعله ذلك يطمئنّ لمخاطبه. واتفقا على الخطّة أو هكذا بدا له.

2

من الغد، في الساعتين الفاصلتين بين الدروس الصباحيّة والدروس المسائيّة، وجد العيفة نفسه محاطا بأربعة طلبة منهم زميله الذي اعتبره كاريزماتيّا وقائدا.

بعد المرور بأنهج ضيّقة في المدينة العتيقة لم يدر كيف وجد نفسه أمام أكوام من الملابس ينتقون له منها أقمصة ومراويل وسراويل ومعاطف وملابس داخليّة يتثبّتون من مدى موافقتها لمقاسه أحيانا، ويطلبون منه أحيانا أخرى أن يقيسها بنفسه. وجدوا صعوبات في أن يعثروا على حذاءين على المقاس، فقد كانت رجل العيفة طويلة مثل طوله الفارع وكان مقاسه نادرا. لكن بجهد جهيد عثروا على برودكان يكاد يكون جديدا وحذاء مغلّف من الداخل بالوبر.

كان اللون الأسود مسيطرا على ما انتقوه له. انهوا اختيارهم للملابس بالتثبّت من كشكولين أحمر وأصفر.

لم تنس الجماعة أن تشتري له رداء استحمام (كاب دوبان) خمريّ اللون وإن كان لا يصل إلّا إلى ركبتيه ومنشفة كبيرة للاغتسال وأخرى صغيرة للوجه.

كان العيفة يتابعهم بنظراته البلهاء ويقبل منهم ما اختاروه له. لم يتدخّل إلّا حين شرعوا في التفاوض مع البائع على الثمن. نظر إلى البائع حانقا وقال له:

– شبيه مذهب بوك الكلب تحب تقشّر فينا واحنا طلبة؟ كان سرقناهم لك خير. يزّي من الركاكة متاع والديك.

ولولا تدخّل الرفاق الأربعة لمسك بخناق البائع وأشبعه ضربا.

لم يفصل النازلة إلّا همس أحدهم في إذن البائع يخبره بأنّه مريض غادر في التوّ مستشفى الأمراض النفسيّة بمنّوبة وهم مجرّد طلبة يريدون مساعدته.

تجنّبه البائع قائلا:

– على خاطركم يا رجال، ادفعوا اللي تقدروا عليه

بعد يوم من جولة اقتناء الملابس الجديدة عادوا بها من المغسلة. أخذه أحدهم إلى الحمام القريب من المبيت في الحصّة الليليّة التي تبدأ مع السادسة والنصف.

دخل يحمل كيسا فيه بعض الملابس النظيفة وكاسة حمّام سوداء خشنة وصابونا معطّرا وقارورة شامبو

ومشط للشعر وآلة حلاقة.

قام الطيّاب بمهمّته كاملة رغم ما بدا عليه من تقزّز أوّل الأمر. فعلى عكس المعمول به مع بقيّة الحرفاء طلى الجسد النحيل الطويل برغوة الصابون الأخضر وغمر الشعر الكثيف ببخّات متعدّدة من الشامبو كادت تذهب بنصف القارورة.

طلب منه أحد الرفاق أن يستعمل رغوة الصابون تحت إبطيه. أمدّه بآلة حلاقة للوجه لينظّف شعر الإبطين. كانت المرّة الأولى التي يحلق فيه شعر ذلك الموضع. أدخله إلى غرفة الاستحمام الفرديّة وطلب منه أن يحلق شعر العانة فهي كما أعلمه من مقتضيات النظافة. كان ذلك أيضا يحدث له للمرّة الأولى في حياته.

حين وقف العيفة أمام المرآة بجانب الرجل المكلّف بقبض مقابل الاستحمام كاد لا يتعرّف على نفسه خصوصا بعد أن حلق ذقنه إثر الاغتسال بتعليمات من رفيقه.

3

وضع أحد الرفاق ملابس العيفة القديمة في كيسين أسودين كبيرين وألقوا بهما في الحاوية الكبيرة المجاورة للمطعم.

بدأت عمليّة نقل سرير العيفة إلى الغرفة 122 صحبة رفيقيه الجديدين. أمدّه أحدهما في الغرفة الجديدة بقارورة من البلاستيك. نظر إليها مستفهما فأفهمه أنّها عطر خاصّ به يستعمله في الصباح وكلّما احتاج إلى أن يجعل رائحته طيّبة. أخرج من كيس الحمّام معطّر الإبطين وسأل عن الفرق بينهما، فهذه أشياء يستعملها لأوّل مرّة في حياته. أمدّه بكيس صغير فيه مسحوق لم يعرفه وكيس آخر فيه قطن ثمّ فرشاة أسنان ومعجون أسنان.

أفهمه أن عليه من الآن أن ينظّف أسنانه مرّتين على الأقلّ في اليوم. أمّا مسحوق بيكربونات الصوديوم فيوضع على القطن المبلّل ليحك به مرّة في اليوم أسنانه عسى أن يساعده ذلك على إزالة الاصفرار عنهما ويخفّف من القلح البنّي الذي التصق بهما.

استنكر كلّ هذا قائلا:

- تحبوني نولّي بورجوازيّ ياخي؟

- لا بورجوازيّة لا شيء، هذا اسمو نظافة.

- الماء ما يزيّش؟

- إنت قايدنا وقايدنا يلزمو يكون قدوتنا في كلّ شيء حتّى في النظافة.

صمت. أعجبته إيقاعات الجناس في كلمتي «قايدنا» «قدوتنا». ظلّ يستمرئ وقعهما في الأذن والقلب ويستطيب معناهما الغامض في ذهنه. فهو لم يتصوّر كيف سيكون ذلك ولا هذا القدَر الذي جعله مصطفى للزعامة بكاريزميّته وروحه القياديّة التي لم يتفطّن إليها إلّا منذ يومين.

4

جلس على السرير الذي وضع مباشرة قبالة باب الغرفة. كان رفيقه الأوّل جالسا على السرير الموضوع على اليمين ورفيقه الثاني بلحيته الكثّة وشعره المجعّد اللامع من أثر «الجال» واقفا قبالته.

أعاد الترحيب به ثمّ حدّد له تراتيب الحياة المشتركة في الغرفة والعلاقة التي تقوم بين ثلاثتهم.

طلب منه أن يلازمه في كلّ الحركات والسكنات، وأن يستشيره قبل أن يقدم على أيّ شيء وأن يتّبع نصائحه. قال له:

- أنا مستشارك الخاصّ يا قائد.

وأشار إلى الرفيق الجالس على السرير الأيمن:

- وهذا المسؤول عن البروتوكول مكلّف بأمنك وتنقّلاتك.

سمعوا طرقا على باب الغرفة. أسرع الجالس على السرير الأيمن إلى فتح الباب منفرجا أوّل الأمر ثمّ مشرعا. دخل رفيق لهما. حيّى الجميع بتحيّة عسكريّة قائلا بعربيّة صارمة:

- تحيّاتي يا قايد، المطلوب نفّذ. كلّ شيء جاهز.

5

في رواق الطابق الأوّل كان العيفة يتوسّط رفيقيه ووراءه الرفيق الذي أعلمهم بأنّ المطلوب قد نفّذ. لم يفهم العيفة ما المطلوب الذي نفّد لكنّه شعر بأنّ الأمور جدّيّة.

كانوا يسيرون بخطى ثابتة إلّا العيفة الذي لم يعرف كيف يمشي. التفت إليه المستشار منبّها إلى ضرورة جعل الظهر مستقيما والوجه صارما والخطوات موزونة موقّعة. طلب منه أن يترك طرفي الكشكول الأحمر منسدلين من الجانبين بدل لفّ الرقبة به. وضع يده على قلنسوة غيفارا ليميلها قليلا إلى اليسار. كانت القلنسوة الناجي الوحيد من الملابس التي أُلقي بها في حاوية الفضلات وحين غسلت في المغسلة مع الملابس الجديدة بدت كالجديدة بعد أن أزيلت عنها الأوساخ.

نزل الأربعةُ الأدراجَ بتؤدة. قطعوا الطريق بين رواق الطابق الأرضيّ والرواق المفضي إلى المطعم بخطوات أسرع. دخلوا المطعم. كانت الساعة حوالي الثامنة إلّا عشر دقائق. لم يكن أحد ينتظر في الصفّ وإن كان المطعم غاصّا بالطلبة. حوالي مئتي طالب.

حين رأوا الطلبة الأربعة يجوزون الباب إلى حيث نصبت الطاولات ساد شيئا فشيئا صمت رهيب، ثمّ سمع ضجيج أصوات الكراسي تُزاح عن الطاولات. وقف جميع الطلبة أمام طاولاتهم صامتين كما لو كانوا في صفوف عسكريّة منظّمة. كانوا يستطلعون القادم. تهلّلت الوجوه وعلاها البشر حين رأوا القائد يشقّ الصفوف.

اقترب المسؤول عن البروتوكول من القايد هامسا:

– شعب المبيت يحيّيك يا زعيمنا المفدّى...

لم يعرف العيفة ماذا يفعل. ظلّ صامتا لكن تفتّق ذهنه عن حركة واحدة، الحركة الوحيدة التي يراها في مثل هذه المناسبات.

رفع يمناه. وجّهها نحو القلب على اليسار مطبطبا على صدره في حركة متعاودة. كانت تلك إشارة الرئيس لتحيّة من يهتفون باسمه من خلال ما ينقله التلفزيون التونسيّ.

مسكه المستشار من يسراه واتّجه به نحو طاولة في آخر المطعم حيث كان ستّة رفاق واقفين ينتظرون القائد.

في كلّ طاولة عشرة كراس. توسّط العيفة الجلسة وجلب له المسؤول عن البروتوكول طبقه بعد أن قدّم له بقيّة الجالسين من الرفاق على طاولة القائد.

فهم بحدسه أنّهم الوزراء الذين حدّثه عنهم الرفيق. ظلّ ينظر إليهم فلم يشرعوا في الأكل. أعلمه المستشار بأنّهم ينتظرونه. أخذ ملعقة معكرونة فتبعه الآخرون. توقّف ينظر إليهم كيف يأكلون فتوقّفوا عن الأكل. همزه المسؤول عن البروتوكول. فهم أن عليه أن يواصل الأكل. وضع الملعقة جانبا وأخذ قطعة الدجاج، كانت قطعة من الصدر، بكلتا يديه. ما كادت تقترب من فمه حتى سمع المستشار يهمس إليه ألّا يأكل بيديه ففي الطبق على اليمين فرشاة وسكّين. نظر إليه شزرا وواصل الأكل باليدين. تبعه في ذلك بعض الجالسين على الطاولة. وأخذ البعض الآخر ينظر، مخفيا ابتسامته، إلى المستشار الذي حاول تجاوز ما أتاه القائد قائلا:

– قائدنا ثوريّ قولا وفعلا، هو ابن الشعب ولا يحبّ بروتوكولات الأرستقراطيّة الرجعيّة...

لاحظ المستشار أن القائد وجّه يده ليمسح الإدام في معطفه. نهره بأن أمسك بيده ليمنعها من الوصول إلى المعطف. ثمّ نظر إليه مؤنّبا زاجرا. همس في أذنه «تحت البرتقالة منديل ورقيّ فاستعمله لهذا الغرض».

ما إن تناول الملعقة الثانية من المعكرونة حتّى تناثرت بعض حباتها على القميص. كان قميصا أسود فأخذ المسؤول عن البروتوكول المنديل الورقيّ من أمامه ومسح موضع وقوع المعكرونة على القميص.

مرّ حفل العشاء بسلام عموما لولا المفاجأة التي حصلت بعد أن أتمّ أكل البرتقالة التي قشّرها له أحد الرفاق الجالسين قبالته ومدّها له متودّدا.

6

شرع الجلاّس يستعدون لمغادرة المطعم. وقف القائد. أزاح المستشار الكرسيّ. استدار يبحث عن طريق الخروج فإذا به وجها لوجه مع نور بهره.

كاد يتعثّر في فتاة قصيرة القامة. تصل في أحسن الأحوال إلى صدره. وجه باسم مشعّ. عينان عسليّتان. صدر نافر. أنف دقيق يتوسّط الوجه. أسنان بيضاء تكاد تبرق. ابتسمت له:

– زميلتك، السنة الثانية إنكليزيه يا قائد، اسمي سلمى...

تسمّر في مكانه. لم يتكلّم ولم يتحرّك ولم يلتفت إلى المستشار ولا إلى المسؤول عن البروتوكول. مدّت يدها لتحيته ثم صعدت على كرسيّ جذبته من خلفها لترسم قبلة مرصوصة على خدّه فانطبع عليه أحمر الشفاه.

قالت له في غنج بعد أن عانقته عناقا شعر معه بنهديها النافرين ينغرزان في صدره كإبر من لذّة:

– ما أحلى ريحة البرفان متاعك يا قائد...

أحس بحرارة في الوجه. ارتبك. شعر بدوخة لذيذة. ظلّ ينظر إليها. يتأمّلها. افترّ ثغره عن ابتسامة واسعة. جمع طرفي معطفه في الوسط. كان قد شعر بانتصاب سريع وبحرارة بين الفخذين. ترهوج. أغمض عينيه لبرهة.

حين فتحهما كانت سلمى قد ذابت كسكّر حلو في ماء مدردر.

لم يعرف كيف وصل إلى الغرفة ولا كيف نام وهل كان في حلم أم في يقظة. ما يعرفه يقينا أنّه وجد آثار الحلم الرائق اللذيذ في تبّانه الداخليّ حين نهض من النوم.

7

لم يتساءل القائد أبدا عن وضعه الجديد. قرّر أن يمنح المستشار والمسؤول عن البروتوكول ثقته المطلقة. لكن ما لم يعرفه القائد أن الفصائل السياسيّة بدأت، كعهدها في بداية كلّ سنة جامعيّة، في عمليّة تأطير الطلبة الجدد وانتدابهم.

كانت الحركة بين الغرف في المبيت وداخلها غير عاديّة. لقاءات وزيارات متبادلة وسهر وسجائر تغطّ برائحتها الطوابق الأربعة للمبنى.

يحلو السهر في حديقة المبيت الجامعيّ فلا مكان للقاء الطلبة الذكور بالطالبات إلّا في المطعم المشترك وفي المشرب إلى حدود الساعة التاسعة ثمّ في الحديقة وخصوصا في الزوايا والأركان البعيدة عن الأعين بالنسبة إلى العشّاق من قدماء الطلبة أو الجدد منهم. فبداية الموسم الدراسي هي أيضا بداية منافسة شرسة على القادمات الجديدات.

إنّ ما يهمّ عمّ البرني العسّاس ألّا يختلط الزبيب بالحمص داخل المبنيين المخصّص أحدهما للذكور والآخر للإناث.

أمّا ميزة هذه السنة الجامعيّة الجديدة فهي الهدوء التامّ في علاقة الطلبة بالإدارة. كان المطلب النقابيّ المتكرّر الذي تتّخذه الفصائل السياسيّة تعلّة لتحريك الأجواء هو تمتيع بعض الطلبة بحقّهم في الإسكان. لكنّ المعيار الجديد الذي أقرّه ديوان الخدمات الجامعيّة لهذه السنة، بتوزيع الطلبة على المبيتات بحسب الكليات التي يدرسون فيها والاختصاصات التي اختاروها، قد قلّص من إمكانيّة الاحتجاج. أضف إلى ذلك اكتراء الديوان لعديد المحلاّت التي تستخدم مبيتات وأقرب إلى المؤسّسات الجامعيّة قد خفّض من عدد التشكّيات.

كان المبيت جنّة مقارنة بالمبيتات الأخرى. فهو مشترك بين الإناث والذكور رغم الفصل بين المبنيين وفيه مطعم خاصّ ومشرب كبير وقاعات للمراجعة واسعة وقاعة للتلفزيون رحبة وأخرى لوسائل الترفيه ككرة الطاولة والبليار.

لكنّ السبب الحقيقيّ لغياب المحور النضاليّ المعتاد على ما أفاد به العالمون بالخبايا ظلّ مسكوتا عنه. فكلّ شيء يمكن أن يكون مدعاة للاحتجاج في المبيت. يكفي أن يجد طالب ذبابة في طبق الطعام، أو ألّا يعجبه ما أعدّه رئيس الطبّاخين في المطعم، أو انقطاع البث التلفزيّ بسبب مشكلة طارئة في هوائيّ التقاط الصورة، أو اختلاف بين طالبين حول القناة التي يريدان مشاهدتها. هكذا كانوا في الحركة الطلاّبيّة المناضلة لا يتسامحون مع التجاوزات مهما كانت.

8

كانت المصيبة هذه السنة أكبر. فقد شجر داخل الغرف خلاف بين الرؤوس المدبّرة أضعف من قدراتهم على تعبئة الطلبة. وممّا أدّى إليه هذا الخلاف العجز عن القيام بتحرّكات نضاليّة تُختبر خلالها كفاءات القادمين الجدد والملتحقين بالفصائل السياسيّة على الصمود والعطاء النضاليّ. إنّها من تقاليد الحركة الطلاّبيّة التي تدرّب الوافدين الجدد على خوض المعارك ضدّ الإدارة العميلة للنظام الرجعيّ.

فقد انقسمت قيادة التيّار اليساريّ المسيطر على المبيت إلى ثلاثة توجّهات بسبب خلافات حول طبيعة

المرحلة بعد أن أحكم النظام قبضته على البلاد. وكان مضمون الخلاف حول تفسير المقصود بشعار الديمقراطيّة في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الصراع ضدّ النظام الدكتاتوريّ.

فلئن مال الشقّ السائد إلى التفسير المعهود الذي يرى الديمقراطيّة هي دكتاتوريّة البروليتاريا وسلطة العمّال فإنّ الشقّ الجديد الذي برز منذ أواخر السنة الجامعيّة الماضية مال إلى فكرة أن دكتاتوريّة البروليتاريا لا تتحقّق إلّا بعد المرور بالديمقراطيّة القائمة على الحرّيات العامّة بمعناها البورجوازيّ. فكان أن اتّهمه الشقّ الأوّل بأنّه تصوّر منشفيّ (يقصدون به المنشفيك في الاتحاد السوفياتي) يقوم على تصوّر غير جدليّ للتاريخ وغير علميّ.

لكنّ انشقاق الشقّ الثالث كان أقلّ خطرا. فهو لا يعترض على دكتاتوريّة البروليتاريا بل يريدها أن تكون دكتاتوريّة البروليتاريا والفلاّحين والبروليتاريّا الرثّة والطلبة معا. واعترض الشقّ السائد بأنّ الفلاّحين هم جذوع البطاطا كما قال ماركس قدّس الله سرّه لأنهم ليسوا طبقة تاريخيّة، أمّا البروليتاريا الرثّة فهي مجموعة من الزعران والبانديّة والخلايق الذين تستعملهم السلطة لإفساد النضالات، في حين أن الطلبة ليسوا طبقة أصلا.

لم يسمع الطلبة بحقيقة هذه الاختلافات، ومن سمع بها لم يفهم دواعي الخلاف وإنّما أخافتهم كلمة دكتاتوريّة منفصلة أو متّصلة بالبروليتاريا والفلاّحين والبروليتاريا الرثّة والطلبة.

كان جلّ الطلبة يتهامسون ساخرين من هذه الخلافات. لكن بعد أسبوعين من بداية السنة الجامعيّة، نظّم الفصيل اليساريّ المسيطر اجتماعا عامّا بطلبة المبيت للترحيب بالجدد منهم وبيان ملامح الخطّة النضاليّة لهذه السنة الجديدة.

وسرعان ما انقلب النقاش من الحديث عن مشاكل السكن والتنقّل والأكلة وظروف الحياة في المبيت، إلى مسألة طبيعة المجتمع والمرحلة ومواجهة النظام العميل لينتهي الأمر بنقاش حادّ حول الديمقراطيّة ومضمونها.

انفضّ الاجتماع بعد أن كاد يستحيل معركة بالألسنة والأيادي بين رفاق الأمس الذين بقوا وحدهم في الساحة الفاصلة بين المبنيين.

9

يقول العارفون إنّ سبب هذا الانشقاق وهذا الصراع هو خلاف أعمق بين قيادات هذه الفصائل خارج الجامعة. لكنّ ما لاحظه المحايدون من المتابعين أنّ كلّ شقّ يمثّل في الواقع علاقات بين مجموعة من الطلبة المنحدرين من جهة واحدة.

وتبيّن بعد التحقيق والتدقيق أن عناصر الشقّ اليساريّ الذي أُفرد إفراد البعير المعبّد قد اكتشف أن العيفة، الغريب الذي لم يعد غريبا، ينحدر من الجهة نفسها التي ينحدر منها أغلب الطلبة القائلين بدكتاتورية العمال والفلاّحين والبروليتاريا الرثة والطلبة. وكانوا يمثّلون الفصيل الأغلب عددا.

فقد حقّقوا أكبر عدد من الانتدابات الجديدة، لكن ما ينقصهم هو القائد الملهم الذي ينير لهم الطريق وينافح عن تصوّراتهم.

لم يفطن أحد إلى أهمّيّة هذا الذي ألقم الأستاذ حجرا، عدا المستشار والمسؤول عن البروتوكول وبعض رفاقهما. ووضعت خطّة إعداده للقيادة في الغرفة 122 التي يقطنها حاليّا.

10

كانوا قد أعدوّا كلّ تفاصيل الخطّة. تأكّدوا أوّل الأمر مع مدير المبيت بأنّ نقلة الغريب إلى الغرفة الجديدة لا تثير أيّ إشكال قانونيّ.

قدّموا له الأمر على أنّه نوع من التضامن بين الطلبة، خصوصا أنّه من عائلة معوزة ولا أصدقاء له في المبيت وهو منطوٍ على نفسه يحتاج إلى الإحاطة النفسيّة حتّى لا يعود إلى المستشفى الذي جاء منه.

أضافوا تبريرات عديدة منها ترك العاملات على راحتهنّ في الغرفة المخصّصة لهنّ. أوقفهم المدير عن حجاجهم وتعليلهم لطلبهم.

التفت إلى المستشار الذي كان ممثّلا بالانتخاب لطلبة المبيت في السنة الجامعيّة المنقضية قائلا:

– إنتوما راضين وانا آش مدخّلني؟ المهم ما تعملوليش مشاكل من بعد. مبروك عليكم رفيقكم الجديد.

كان تلويح المدير باستعمال كلمة «رفيق» دليلا واضحا على أنّه فهم المسألة. وحتّى حين طلب منه المستشار توضيح قصده من كلمة «رفيق» أجابه مبتسما ابتسامة ماكرة:

- باهي زميلكم موش رفيقكم ماكم تسمّيو بعضكم رفاق وزيد هاو طلع من دشرة قريبة لدشرتك. المهم سايسو عليه واحسبوه خوكم راهو موصّي عليه السيّد الوالي بكلّو تمشيوش تحشّموني؟

يوم من حياة الزعيم الجديدة

1

تأقلم العيفة بسرعة مع وضعه الجديد، سرعة فاجأت رفيقيه على نحو سارّ. فقد كان يلتزم بالتعليمات. تكفي الإشارة ليستوعب المطلوب منه ويتصرّف بمقتضاه. فكأنّه لم يخلق إلّا للقيادة التي أتته تجرّر أذيالها. وجده المستشار والمسؤول عن البروتوكول طيّعا لبيبا. فبدأت سمات القيادة ترتسم على وجهه وحركاته وإن تأخّرت قليلا في خطابه.

أصبح بسرعة سيّد الغرفة 122. يحدّد وقت النوم والنهوض في الصباح. كان في حدود العاشرة يأمر رفيقيه بالالتجاء إلى سريريهما قائلا:

– إلى النوم فغدا تنتظرنا مهامّ نضاليّة كبيرة وعديدة. لا بدّ من اللياقة البدنيّة.

في مواقف الجدّ كان القائد في بداية قيادته لجماهير الغرفة 122 لا يستعمل إلّا العربيّة الفصحى.

في المرّات الأولى كان الرفيقان يتبادلان الابتسامات والنظرات الساخرة. فكان العيفة يتجهّم معبّرا عن غضبه منهما واستنكاره لعدم تنفيذ الأوامر في الحال. فهما أنّه جادّ في أداء دوره بل تقمّصه فعلا ولم يعدّ يمثّل.

لكنّ العامل الحاسم في هذا الالتزام بتعليمات النوم الباكر تكمن في شيء آخر غير الخضوع. ففي الوقت الذي يكون بقيّة طلبة المبيت يسهرون ويتسامرون، أو يتحادثون مع صديقاتهم في الحديقة، ويختبرون الحدود التي يمكن أن تبلغها عواطفهم المشبوبة الحقيقيّة أو المصطنعة، يكون الرقاد قد انصبّ في مقل الرفيقين بعد أن هدّهما التعب. فمن عادات الزعيم التي فرضها على رفيقيه في الغرفة النهوضُ في ساعة مبكّرة.

يأخذ قصبته في الخامسة صباحا ويشرع في إصدار نغمات حزينة في مقام الصبا. كانا يجدان نفسيهما كلّ

صباح مجبرين أوّل الأمر على مغادرة الفراش ثمّ صارا معدّلين كالساعة على ذلك الوقت.

كان يبرّر النهوض في الصباح الباكر بما يقوله المثل الفرنسي الذي أعاده على مسامعهما معرّبا بعد أن احتجّا في البداية:

– لا يكون النضال بالنوم. يمكن أن تندلع الثورة في أيّ لحظة... ماذا لو قامت الثورة ولم نكن نحن أوّل من يقودها؟ إن الحياة يمتلكها من ينهض باكرا.

شعر الرفيقان بأنّ الاستعداد للثورة بدأ في الغرفة 122 مع قائد واع بما تستوجبه من يقظة دائمة.

2

كان العيفة يقتصد في الكلام. تعلّم الابتسام للزملاء والرفاق في رصانة في الحركة وسكينة تعلو المحيّا. لا يسلّم باليد بل يكتفي بتحريك الرأس. يمشي في الأروقة رافعا رأسه في شموخ ينظر إلى نقطة في الفراغ بما يبعث فيه مهابة ثابتة ورصانة بيّنة. يحيّيه الجميع باحترام شديد ويوسّعون له الطريق حين يمرّ.

في الحافلة المملوءة عادة بطلبة المبيت يتركون له أوّل كرسيّ فيها من جهة السائق مباشرة وراءه. حتّى السائق صار يعرفه ولا يناديه القائد بل الزعيم. فيبادره بصباح الخير ولكن القائد لا يرد عليه ويكتفي بوضع يمناه على صدره من جهة القلب تعبيرا عن الشكر وردّ التحيّة بأجمل منها.

وقد توطّدت العلاقة بين الزعيم وسائق الحافلة منذ تلك الحادثة. فقد وصل السائق يوما بعد خمس دقائق من الموعد اليوميّ لنقل الطلبة. فكثر اللغط والاحتجاج على التأخير وتوتّرت الأجواء رغم اعتذار السائق وردّ التأخّر إلى الحركة غير العاديّة في الطريق. لكنّ بعض الرفاق الثوريّين اعتبروا أنّ السائق يكذب وأنّه عميل للنظام الذي يريد استفزاز الطلبة بسبب تحرّكاتهم في الكليّة وإيقاف المدّ النضاليّ وهو بالتالي شريك في قمع الطلبة.

ظلّ العيفة ينظر إليهم ويرى الحرج الذي كان فيه السائق. صعد إلى الدرجة الأوّلى في باب الحافلة صارخا بصوته الأجشّ:

– يا رفاق... يا رفاق... يا رفاق...

ساد الصمت في انتظار ما سيقرّره القائد. كان السائق أوّل الواقفين أمام باب الحافلة ينظر إلى هذا الشاب فارع الطول الذي لم يكن يعرفه حقّ المعرفة:

- يا رفاق نضالنا ليس ضدّ البروليتاريا وسائق الحافلة منها. لم يقع شيء... مجرّد تأخير بسيط... من يريد أن يصعد إلى الحافلة فليفعل لنناضل في كليّتنا ومن يريد أن يحتجّ ليعلم أنّه حليف موضوعي للرجعيّة والنظام العميل ويعمل ضدّ البروليتاريا هذه (وركّز سبابته الطويلة في وجه السائق الذي أخذ ينظر إليه مستغربا)

يومها لم يعرف السائق كيف يشكر الزعيم. صعد إلى كرسيّ قيادة الحافلة، التقط الجريدة من تحت الكرسيّ وقال للعيفة:

- برة يرحم الكرش اللي جابتك يا زعيم، خوذ وسّع بالك في الثنيّة بالجريدة...

من يومها صار سائق الحافلة يحضر معه كلّ صباح تلك الجريدة اليوميّة الشعبيّة من صنف «تبلويد» بعد أن عرف أنّها الجريدة المفضّلة عند الزعيم.

وقد اختلف الرفاق في سبب تفضيله لهذه الجريدة. ذهب بعضهم إلى أنّها مليئة بالأخبار وشاملة لا تكتفي بما تنقله وكالات الأنباء بل تستقي أخبارها أيضا من الفضائيّات التي بدأت تتكاثر. وذهب البعض الثاني إلى أنّها مقرّبة من وزارة الداخليّة والقصر فهي تعبّر عن وجهة نظر النظام بما ييسّر للقائد أن يعرف توجّهات النظام العميل. لكنّ فريقا منهم لاحظ أنّ القائد يركّز أكثر على صفحات المنوّعات والأخبار الخفيفة والرياضة. وهو ما أثار حنق بقيّة الرفاق لما في ذلك من تشكيك في حرص القائد على الإلمام بمشاكل البلاد.

يتّخذ القائد مكانه وراء السائق الذي صار يمدّه بالجريدة كلّ صباح عدا يوم الأحد بطبيعة الحال، ويوم الإثنين الذي لا تصدر فيه الجريدة، ولكنّه يعوّضه عنها بجريدة أخرى أسبوعيّة من صنفها.

كان يجول ببصره على الصفحة الأولى، يقرأ العناوين الكبرى ويتأمّل الصور. يشرع في فتح الجريدة المغلقة بإدخال إصبع واحد من أصابعه الطويلة في الصفحات الوسطى منها ليفصلها بعضا من بعض. فيُحدث بتلك الحركة حفيفا مميّزا لا أحد يعرف سرّه. كانت تلك الحركة الصباحيّة فرصة أخرى للتأكّد من كاريزما القائد حتى في أبسط حركاته وأكثرها عاديّة. ثمّ يتخذ هيئة جادّة متكئا على الكرسيّ ويشرع في تقليب الصفحات كلّها بنظرة سريعة يعود بعدها إلى الصفحة الثانية مبتدئا بقراءة الافتتاحيّة.

كان للقائد في تعامله مع الصحيفة أسلوب خاص. فهو يطالع الصفحة الثانية فالرابعة فالسادسة وهكذا دواليك إلى أن يفرغ من الصفحات ذات الأرقام الزوجيّة فإذا وصل إلى آخر صفحة منها عاد إلى مطالعة الصفحات ذات الأرقام الفرديّة.

وقد استنتج الرفاق، بعد أن لاحظوا تكرار ذلك دون أن يتجرّؤوا على الاستخبار منه، أنّ عقل القائد هندسيّ من جهة، منظّم تنظيما قائما على التتابع من جهة ثانية، وتأليفي تركيبي من جهة ثالثة. فحتّى إذا كان المقال موزّعا على صفحتين برقمين زوجي وفرديّ فإنّه يقرأهما منفصلتين معوّلا ولا شكّ على كفاءته في الربط والتأليف. إنّها من العلامات التي لا تخطئ على ذكائه الاستثنائيّ.

ما لا يعرفه الكثيرون عن القائد، باستثناء المقرّبين وبالتحديد رفيقاه في الغرفة، أنّ ممّا منّ به الله عليه أنّه يطالع الصفحة من كتاب أو كرّاس نقلت فيه الدروس فتنطبع في ذاكرته التي تشتغل كأنّها آلة ناسخة أو ماسحة ضوئيّة رقميّة وإن لم تكن الماسحة قد اخترعت بعد في ذلك الوقت.

3

صار البرنامج اليوميّ للقائد واضحا. ينهض في الخامسة صباحا. يعزف على قصبته أنغامه الحزينة البديعة في مقام الصبا لا غير. يأكل ما تيسّر من البسيسة. يعدّ بيديه برّاد الشاي الأسود في الكانون الصغير الذي اشترط عليه رفيقاه وضعه في الشبّاك. يفتح الحنفيّة ليملأ بطنه بما يناهز اللتر ونصفا من الماء كل صباح. كان لا يحبّ إلّا ماء الحنفيّة يعبّه منها عبّا ويقول لرفيقيه:

- ماء الدبابز متاعكم يمرّضني ويعملّي مشاكل في معدتي.

منذ أن استقرّ مع رفيقيه، صار يحمل رداء الاستحمام والمنشفة ولوازم الاغتسال كلّ يوم ليستحمّ بالماء البارد. كانت حرارة الغرفة بالنسبة إليه مرتفعة جدّا حتى حين لا تكون خدمة التسخين متوفّرة. فالقائد كثير التعرّق، يعوم ويغطس كلّ ليلة في العرق، فلا بدّ من الماء البارد لتعديل الحرارة والمزاج. فلم تكن النظافة شاغله إلّا عرضيّا. ويبدو أنّ للمسألة صلةً، على ما قدّر رفيقاه، بكوابيس متكرّرة تعكّر رقاده. فقد كان ينهض أحيانا من نوم عميق لاهثا أو صارخا أو متوجّعا ينضح عرقا. يتّجه إلى الحنفيّة يعبّ منها عبّا ثم يعود إلى هجعته.

ولكنّ رفيقيه أحبّا منه عادة الطهارة اليوميّة وأحبّا أكثر تعطّره المبالغ فيه رغم أنّه يكلّفهما في أسبوع ما كان يمكن أن يستهلك من العطر الرخيص في شهر. فقد صار يحمل معه القارورة البلاستيكيّة ليبخّ منها ساعة بعد ساعة على وجهه وفوق شعره وثيابه أيضا بخّات متتالية.

ثم يكون القائد أوّل الصاعدين إلى الحافلة التي تنقل الطلبة من المبيت إلى الكليّة. كانت تنتظر الطلبة بين السابعة والسابعة والربع.

4

حين تصل الحافلة إلى الكليّة يكون القائد أوّل النازلين منها. صارت الطقوس معروفة. يقف في الباب المفتوح بقامته الطويلة. يستنشق الهواء بملء رئتيه. وفي اليوم الماطر يمدّ يديه إلى الأمام كيسوع المسيح في التماثيل القديمة. يفتح كفيه لتلقّي زخات من المطر يغسل بها يديه ووجهه من منابت الشعر إلى الذقن ثمّ ينزع قلنسوّة غيفارا ليمسح رأسه من الأمام إلى الخلف. عندها يكون الطلبة ينظرون إليه متأهّبين للنزول بعده.

كان دخول طلبة المبيت إلى الكلّيّة أشبه بتظاهرة يقودها الزعيم. يسير محفوفا بمستشاره والمسؤول عن البروتوكول وأربعة من حرّاسه الشخصيّين. وحين يصلون إلى الساحة المحاذية لمشرب الكليّة ينطلقون في أداء النشيد الرسميّ التونسي بأصوات ملؤها الحماس والاندفاع والنشاط. يقف الزعيم ومن معه قبالة الجماهير الطلاّبيّة ويرفع يده عاليا إشارةً منه إلى بداية الإنشاد الذي ينتهي برفع الشعار اليوميّ:

– عاش القائد... عاش... عاش... عاش

ويذهب كلّ إلى غايته.

وكان الزعيم قد فسّر لأصفيائه المقرّبين أنّ النشيد الرسميّ كلام فارغ كتب للبقر والدوابّ التي لا تدرك منه شيئا إذا ردّدها الرعاة مثلما كان يفعل في دشرته البعيدة. ولكنّ أهمّ ما فيها الألحان التي تخلق في النفس شعورا بالوحدة وتصهر الأصوات المردّدة في صوت واحد هادر يبشّر بالثورة القادمة.

وهذه من جوامع الكلم التي لم يدرك الرفاق ما فيها من حكمة بليغة حتّى بعد تدبّر وتفكّر.

5

بحسب برنامج الزعيم ومستجدّات الوضع في الكلّيّة تكون تفاصيل اليوم كلّه. فإذا دخل درسا من الدروس تبعته عناصر القيادة ولحق به الأصفياء. وإذا قرّر أن يخصّص اليوم للنضال يذهب إلى المشرب ليحتسي قهوته السوداء المرّة (فهو لا يحبّ السكّر) وقد تحلّق حوله بعض الطلبة يسألونه ويستفسرون عن كلّ شيء، فيجيب باختصار شديد لا يطيل التحليل ولا يتوسّع. فمن جوامع الكلم التي حفظها الرفاق عنه:

- لا تحتاج الثورة إلى شرح مطوّل. إنّها غريزة في النفس ويكفي أن نحسن الإصغاء إلى هديرها في النفس قادمة من بعيد...

إنّ الزعيم من الذين يأخذون بمبدإ البلاغة الإيجاز، بعيدا عن الثرثرة والإطناب إذا تعلّق الأمر بالأحاديث الثنائيّة في المشرب. ولكنّه قد يطيل ويسهب عندما يحلّل ويردّ وينقد ويجادل ويقرّع وهو يعتلي منصّات الخطابة في الكليّة.

كان جلّ الطلبة لا يفهمون ما يقول. فهو يصدمهم بتعابير تبدو لهم ملتبسة ولكنهم لا يتجرّؤون على الاستفسار. فقد سأله أحد الطلبة الجدد يوما عمّا يقصد بعبارة ماركسويّة وما الفرق بينها وبين الماركسيّة والماركسيانيّة. حدّق في عينيه والشرر يتطاير من نظراته. تأفّف متبرّما. ضرب على طاولة المشرب وخاطبه قائلا:

- أنا قائد ولست معلّما. عليك أن تطبّق الماديّة التاريخيّة على الماديّة الجدليّة لتدرك الفرق. كلّنا أبناء التاريخ، والثورة لا تنبت في العقول كالفطر.

ردّد الأصفياء من المناضلين عبارات الزعيم واستخدموها في جدالهم مع القوميّين وغير القوميّين من الفصائل المنافسة. ولكن لا أحد حقّق في معناها ولا أدرك المقصود منها. هكذا هي الزعامة تحتاج إلى الإيمان بما يقوله الزعيم الملهم وإلى ترسيخ أفكاره العبقريّة بتكرارها حتّى إن لم نفهمها.

لكنّ أجمل الأيّام في حياة الكليّة حين تنعقد الاجتماعات العامّة ويتدخّل الزعيم للمناقشة وتوجيه جموع الجماهير الطلاّبيّة. فيتكلّم الساعة والساعتين منوّعا نغمات صوته الجهوريّ الأجشّ، يصمت في مواضع الصمت ويوجز في مواضع الإيجاز ويسهب في التحليل للتوضيح ويختصر في توجيهاته السديدة ويسخر في نقده للمواقف المخالفة.

إنه موسوعة بلاغيّة وعلميّة ناطقة يتعلّم منها الطلبة ما لا يتعلّمونه في قاعات الدرس. فلا تخرج من اجتماع يتكلّم فيه إلّا وقد استقرّت في ذهنك مصطلحات جديدة وعبارات أنيقة عميقة وأفكار لا عهد لك بها.

كان الطلبة قد سمعوا منه لأوّل مرّة مصطلحات كثيرة ذهب عنهم أكثرها من قبيل الكتلة التاريخيّة والهيمنة الإيديولوجيّة والفرق بين الوعي العفويّ والفلسفة العفويّة والتاريخانيّة والثورة السلبيّة واليعقوبيّة، وأنّ الفرق بين المرأة والرجل هو أنّ المرأة تحيض والرجل لا يحيض. ومنه علموا أن الثورة لا تكون ثورة إلّا إذا صنعت المراحيض من الذهب، وجعلت كلّ الناس مبدعين وفنّانين يكتفون بالعمل يوميّا لساعتين على أقصى تقدير حتّى يتفرّغوا إلى هواياتهم. وهو أوّل من مجّد الكسل واعتبر المدارس غير ضروريّة فبسقوط الدولة تسقط أجهزتها الإيديولوجيّة، وغير هذا من الأفكار الملهمة التي تحمل جماهير الطلبة إلى فردوس العدالة الاجتماعيّة والإنسانيّة الجديدة التي ستبنى على أنقاض البربريّة. لم يتساءل أحد عن الكيفيّات والأساليب. لقد كانوا يثقون في زعيمهم وسداد رأيه.

6

على الساعة الخامسة والنصف، تنطلق الحافة في رحلة العودة إلى المبيت. يكون الزعيم وقتها أوّل الواقفين أمام الحافلة. يفتح له السائق الباب ليجلس في مقعده المعتاد بما يعني الإذن لبقيّة الطلبة بالصعود.

وحين يصلون إلى المبيت، بعد حوالي ساعة، يرتاح الزعيم في غرفته مدّة ربع ساعة لا تزيد ولا تنقص ثمّ ينزل إلى المطعم الجامعيّ ليبدأ حفل العشاء فشرب كأس من الشاي في المشرب. ثمّ يذهب إلى قاعة التلفزة يشاهد الأخبار. بعدها يختفي الزعيم تماما في انتظار صباح جديد.

لكنّ وراء هذا النظام الدقيق حكمة وأيّ حكمة. فالثورة تحتاج، كما كان يقول الزعيم دوما، إلى تخطيط صارم وانضباط واستعداد دائم لكلّ الطوارئ. فلا أحد يستطيع التنبّؤ باندلاع الثورة لأنّها حاجة تاريخيّة واجتماعيّة تولد طبيعيّا مثل تبخّر الماء في درجة معيّنة من الغليان أو تلقّح البويضة، بويضة المجتمع، بحيوان منويّ، هو الوعي الطبقيّ الثوريّ.

كانت نظريّة الزعيم تسخر من الحزب الثوريّ الطليعيّ الذي يقود الجماهير ويعدّها للثورة. يسمّى ذلك،

بناء على تشبيهه للثورة بالإخصاب، ثورات الأنابيب قياسا على أطفال الأنابيب لذلك تنتهي مغدورة، أقرب إلى الانقلابات منها إلى الثورات. وفي السياق نفسه كان يميّز بين الثورات والانتفاضات التي يشبّهها بالحمل خارج الرحم فيكون النموّ غير طبيعيّ ينتهي بالإجهاض بسبب نزيف داخليّ.

أمّا الثورة الحقّ عنده فهي تتطلّب من القوى الثوريّة أن تترصّد الوضع مثلما تترصّد الحيوانات المفترسة فريستها. فالمسألة مسألة صراع طبيعيّ من أجل البقاء. لكن أثناء الترصّد لا بد من إطالة المخالب الفتّاكة وشحذ الأنياب للنهش وتقوية الأسنان للقضم وإيقاد الحواسّ شمّا وبصرا وسمعا وتنمية الذكاء في التعامل تمويها وتربّصا.

كان القائد يصف الثوريّين بالانتهازيّين. أثار وصفه أوّل الأمر استهجان الرفاق قبل أن يبيّن لهم أن الانتهازيّة خصلة حسنة، فالحيوان الثوريّ المفترس ينتهز غفلة حيوانات رأس المال والبورجوازيّين القذرين والإقطاعيّين ليفتك بهم.

من يومها ألحقوا صفة الانتهازيّة بكلّ ثوريّ حقيقيّ.

وكان الزعيم يدعوهم إلى أن يتعلّموا من الأسود ليكونوا ثوريّين حقيقيّين. فالقوى الثوريّة التي تترصّد الثورة لا تكون إلّا ضمن جماعة تتعاون ملتحمة متماسكة في انتظار الفريسة لصيدها. وما عليها إلّا أن تنقل تجاربها في الترصّد إلى الأشبال (يقصد الطلبة الجدد) بتعليمهم تقنيات الترصّد ومهارات الصيد والاستعداد للافتراس في اللحظة الحاسمة.

7

لا يتغيّر برنامج الزعيم اليوميّ إلّا لسبب قاهر. فكم مرّة، في بداية زعامته، احتاج إلى السهر بعد العشاء ونشرة الأخبار لمواجهة الأطراف السياسيّة الأخرى التي تريد السيطرة على المبيت وانتزاع الزعامة التي خلق لها أصلا.

يقف محاطا برفاقه وحرّاسه الشخصيّين قبالة أحد الطامحين إلى الزعامة في حلقة نقاش تكبر أو تصغر عددا بحسب الطامح ومن معه من المساندين. تصطفّ كلّ مجموعة وراء من تناصره.

وكان صفّ القائد أوّل الأمر متواضعَ العدد ولكن لا تنتهي حلقة النقاش إلّا وقد انسحب معظم

مناصري الطرف المقابل ليصطفّوا وراء الزعيم. فبتقدّم النقاش يكتشف الطلبة قوّة حججه وهو الخطيب الهادئ الرصين الحكيم الذي ينثر درّ الأفكار في بلاغة أخّاذة.

تكرّر ذلك ثلاث أو أربع مرّات إلى أن استقرّ للزعيم الأمر.

ولكن ما لم يدركه الخصوم، وظلّ سرّا لا يعرفه إلّا المقرّبون، أنّ تكتيك القيادة المحيطة بالزعيم كان منبنيا على دراسة نفسيّة لسلوك الجماهير الطلاّبيّة.

ففي بداية حلقة النقاش يدسّون أكبر عدد ممكن من أنصار الزعيم وراء الطامح الجديد للقيادة. وخلال النقاش يتهامسون في آذان الطلبة العاديّين، أو المناصرين منذ البداية للخصم، إعجابا بما قال الزعيم أو تنبيها لِحِكَمِه التي يرسلها. ويشرعون شيئا فشيئا في الاصطفاف وراءه إلى أن يكبر عدد حزب أنصار الزعيم.

ولمّا كان الناس أميل إلى محاكاة المجموعة واحتذائها واتباعها خوفا من الانفراد والمخالفة التي تجعلهم أقلّيّة دون قائد، فقد نجحت هذه الخطّة التي رسمها مستشار الزعيم.

كانوا يسمّون أسلوبهم هذا بأسلوب «العدوى الثوريّة».

من حكمة الزعيم

1

كان الزعيم يرابط طيلة اليوم في الكلّيّة. تراه في أغلب الأحيان خارج قاعات الدرس. وله في ذلك نظريّة شاعت بين الرفاق.

- «الجامعات أجهزة إيديولوجيّة للدولة، دورها تعليب العقول وسحق المواهب. كل موهبة حرّة هي وعد بالثورة. والأساتذة هم كلاب حراسة النظام السائد وبعض رجال مطافئ الثورات وخنقها في المهد. دعكم من مضمون دروسهم التافهة في العادة والمزيّفة للوعي التاريخي، فهو مضمون ناطق باسم الأنظمة القمعيّة. إنّهم يدافعون عن مصالحهم المادّيّة وموقعهم الاجتماعي. يخشون الثورة ككلّ البورجوازيين الصغار».

في المرّات القليلة التي يدخل فيها الزعيم إلى قاعات الدرس، لا يترك فرصة تمرّ دون أن يفتعل نقاشا مع الأستاذ يخرج به عن الموضوع. والغريب أنّ الأساتذة كانوا يستطرفونه.

وقد وقف له يوما أستاذ من اليساريّين المعروفين. أكّد له أنّ ما يقوله صحيح وزايد عليه بأنّه كان في ثورة ماي 68 يُخرج الأساتذة الكبار من قاعات الدرس ويرفع الشعارات ضدّهم مع الطلبة الثائرين. وكذلك فعل العظيم ماوتسي تونغ ضدّ هؤلاء الرجعيّين التافهين خلال الثورة الثقافيّة العظيمة.

قال له موجّها إليه الكلام:

- انا بورجوازيّ قذر حقير، ولكن لماذا لا تطردونني من قاعة الدرس أنت ورفاقك فترتاحون من وعينا الزائف؟ هل أنت مستعد الآن العودة إلى ريفك البعيد لتهيئ أهلك وعشيرتك للثورة الموعودة؟ لم تتبقّ لي على التقاعد إلّا سنة واحدة... اذهب هناك وسألتحق بك»

كانت الحصّة قد انتهت. تأبّط الأستاذ محفظته واتّجه صوب باب القاعة. التفت إلى القائد قائلا:

– لا تنس أن تترك لي عنوانك. ألتحق بك في منتصف شهر جويلية المقبل.

ضحك الطلبة وبقي القائد ينظر إلى الشباك غير آبه بما قاله الأستاذ ولا بضحكات زملائه. بعد ثوان معدودات عاد الأستاذ إلى القاعة. وقف في المدخل وخاطب الجميع:

– امتحان آخر السنة سيكون موضوعه الآتي: «بيّن دور الطبقة الوسطى في إنجاح الثورات ثمّ الغدر بها من خلال أمثلة دقيقة».

صدّق الطلبة ما قاله الأستاذ وأخذوه مأخذ الجدّ فتحلّقوا حول طاولة القائد يسألونه ويستفسرون عن الأمثلة الدقيقة. كان يقول كلاما بدا لهم غريبا ومهمّا لأنّهم لم يفهموا عنه شيئا، والأرجح أنه هو نفسه لم يفهم ما كان يقول.

لم يتجرّأ أحد على إعلامه بغموض ما قال، ولا سكت هو عن الكلام إلى أن انفضّ عنه زملاؤه.

لقد تأكّدوا أنّ الزعماء الملهمين يأتون قبل وقتهم فيعيشون غرباء إلى أن تنجلي للناس حكمتهم.

ولم يشذّ الزعيم عن هذه القاعدة.

2

كانت تصرّفات الزعيم ومواقفه تبدو لعموم الطلبة، المشتغلين منهم بالسياسة والثورة والعاديّين، غير مفهومة أحيانا.

فقد وصل يوما إلى مشرب الكلّيّة حوالي منتصف النهار والنصف مباشرة بعد إحدى المحاضرات التي كان يحرص على حضورها لأنّ الأستاذ لم يكن يدرّس بل يروي الحكايات الطريفة. فكانت حصّته عند القائد حصّة استراحة واستمتاع. لم يكن يضحك مثل بقيّة الطلبة بل يظلّ متجهّم الوجه جادّا صارم القسمات. ولكنّه يتلذّذ بأسلوب الأستاذ في الحكي ويضحك في سريرته كثيرا ليجد نفسه بعد كلّ حصّة منشرحا.

كان الطلبة قد أغلقوا باب المشرب على العاملين فيه وعلى صاحبه الذي يشرف عليه ويستغلّه على سبيل

الكراء. وكان أحد طلبة المكتب الفيديرالي بالكلّيّة، وهو من القوميّين اللبقين ومن الخطباء المفوّهين، يخطب مندّدا بسياسة التجويع التي يمارسها النظام الرجعيّ الإقليميّ ضدّ الطلبة، ويحلّل العلاقة الفاسدة ماليّا بين الإدارة والعميد تحديدا ومكتري المشرب على اعتبار عدم خضوعه لما تفرضه المناقصات العموميّة والاستشارات المستوجبة لكراء مثل هذه المحلاّت التي هي ملك للشعب. وعرّج على ممارسات صاحب المشرب مع الطالبات والتحرّش بهنّ جنسيّا حسب شكاوى بلغت إلى المكتب الفيديرالي.

ظلّ القائد ينصت بانتباه إلى ما يقوله الخطيب المفوّه. دعاه الرفاق المتحلّقون حول الطاولة التي وقف عليها الخطيب ليتناول الكلمة بعده. اقترب منهم ولم يعد يرى وجه الخطيب. فقد أخذ يجول ببصره في وجوه الطالبات اللاّتي يبتسمن له ما إن تقع عيناه على عيني واحدة منهنّ. شعر بمتعة لم يشعر بها من قبل. كانت العيون المراض والواسعة، والمكسوّة أجفانها بألوان قوس قزح ورموشها بالكحل أو ما يشبه الكحل تحمله إلى عوالم سحريّة لذيذة.

لم يعد يصغي إلى ما يقوله ممثل المكتب الفيديرالي. سرح ذهنه في تقاسيم الوجوه وألق العيون وأشكال الأجساد الغضّة وألوان الطالبات الزاهية ملابس ووجوها.

جمع طرفي معطفه في الوسط ليخفي ما لا ينبغي للزميلات أن يرينه، وللزملاء أيضا. لكنّه تزوّد في خيالاته بأحلى الوجوه لساعة المتعة الليليّة التي بدأ يفكّر فيها.

3

فجأة أدرك حقيقة ما وقع بعد أن استفاق من حلم اليقظة. سأل أحد الرفاق بجانبه عمّا أدّى إلى هذا التحرّك الاحتجاجيّ. أعلمه أن طالبتين اشتكتا من الشطيرتين اللتين باعهما إليهما صاحب المشرب. أكدت الأولى أن طعمها قارص لفساد المايوناز أو الهريسة فيه ووجدت الثانية فيها شعرة سوداء بعد أن أكلت ربعها فكادت تتقيّأ أمعاءها بعد ذلك. لقد عافتها نفسها الرقيقة.

من باب المشرب الحديدي المشبّك الذي أغلقه الطلبة على كلّ من فيه تحدّث القائد مع صاحب المشرب. تأكّد أن رواية الطالبتين هي نفس رواية صاحب المحلّ مع اعتراف بالشعرة التي سقطت في الشطيرة وإنكار لفساد المايونيز والهريسة.

بعد أن أتمّ الخطباء من مختلف التوجّهات السياسيّة خطبهم المندّدة بما وقع والمتهجّمة على سياسة النظام ضدّ الطلبة ارتقى القائد طاولة الخطابة.

لم يكن يراه بوضوح إلّا الطلبة الموجودون في الصفوف الخلفيّة. أمّا الطلبة القريبون من منصّة الخطابة فقد اضطرّوا إلى إمالة رقابهم إلى الخلف ليروا وجه الخطيب. كانت الوضعيّة مرهقة ولكنّ الدرّ الذي كان ينثره القائد من فمه جعلهم يحتملون تلك المشقّة في النظر إلى طلعته البهيّة.

– رفيقاتي، رفاقي، هذا يوم آخر سيسجّله تاريخ الحركة الطلاّبيّة المجيدة بأحرف من عرق المناضلين الزكيّ. إنّكم تثبتون مرّة أخرى أن وحدتنا مصدر قوّتنا، وأنّنا لا نتجنّى على أحد حين نكشف ألاعيب السلطة وسياستها الغبيّة لتجويعنا وحرماننا من حقوقنا والتنكيل بنا. إنّ صراعنا ضدّ هذه الليبيراليّة المتوحّشة والنظام الاقتصاديّ الفاسد يتطلّب نضالا طويل النفس كلّه عزيمة وتصميم. علينا أن نعرف أعداءنا جيّدا وأن نبني على ذلك تكتيكاتنا واستراتيجيّتنا الكفاحيّة.

توقّف عن الكلام فجأة. حرّك رأسه من اليسار إلى اليمين ينظر إلى الطلبة الصامتين الذين ينتظرون بقيّة الخطاب. دام ذلك زهاء الدقيقة وهم شاخصون في الخطيب.

– رفيقاتي، رفاقي الأشاوس. إنّ صاحب المشرب من البورجوازيّة الوطنيّة الصغيرة، وليس كمبرادورا ولا رأسماليّا كبيرا. والخطأ إذا سلّمنا به يعود إلى من يشغّلهم صاحب المشرب، وهم من البروليتاريا. فإذا أغلقنا المشرب فإنّ الضرر سيلحق بهؤلاء العمّال لا بالمشغّل. وليس لهم نقابة تدافع عنهم. فلنكن نحن نقابتهم التي تدافع عن مصالحهم. والحلّ واضح عندي. هل لديكم ثقة فيّ؟

أجاب الطلبة بسرعة كما لو كان كلامه قد شحنهم بصوت واحد هادر:

– بكلنا معاك يا قائد، بكلنا ثقة فيك.

حينها استأنف خطابه قائلا:

– لقد اعترف صاحب المشرب بالشعرة، وهو خطأ رفيق لنا من البروليتاريا التي تعدّ الشطائر في المشرب. سنطلب منه أن يشتري لهم قبّعات تلفّ شعورهم حتّى لا يتكرّر الخطأ. أمّا فساد المانوناز (هكذا نطقها) والهريسة فسأتثبّت من ذلك بنفسي وبعدها نقرّر فتح المشرب أو

الاستمرار في إغلاقه.

أخذ الطلبة يعبّرون عن إعجابهم بحكمة القائد وسرعة إيجاد الحلول لديه.

4

تعالى الضجيج في صفوف الطلبة ينتظرون نتيجة فحص الزعيم للشطائر بعد أن دخل إلى المشرب. بدأ الضجيج ينقلب هرجا ومرجا.

التهم القائد من كلّ صنف من الشطائر شطيرة: شطيرة التنّ، شطيرة الدجاج، شطيرة الصلامي، الشطيرة رويال الأغلى ثمنا لجمعها جميع مكوّنات الشطائر الأخرى.

أتمّ القائد فحصه. شبع بعد جوع. خرج من المشرب يتبختر. ارتقى طاولة الخطباء.

ظلّ يتأمّل الوجوه أمامه. كان يركّز على الحسان صامتا. جذب إلى الوسط طرفي معطفه كعادته الجديدة حين تفاجئه الحالة ويسري الدم في آلته ويشعر بحرارة بين الفخذين.

ساد صمت رهيب إلّا من أصداء منبّهات السيارات في الخارج. ثم نطق بالحكم:

- جماهيرنا الطلاّبيّة العظيمة، رفيقاتي، رفاقي المناضلين في هذا الجزء الجامعيّ. لقد تأكّدت الحركة الطلاّبيّة بما لا يدع مجالا للشكّ، وبعد المعاينة والتثبّت الدقيق، أنّ الشطائر سليمة. ففكّوا الحصار عن المشرب.

كان صاحب المشرب ينصت إلى القائد مبهوتا متعجّبا ولم يتمالك نفسه عن أن يصرخ:

- ينصر دينك يا قائد

عادت الحركة إلى المشرب أكثر مما كانت في مثل تلك الساعة من اليوم حتّى أن الشطائر نفذت في وقت قياسيّ. ولم يجد صاحب المشرب إشهارا لبضاعته أفضل ممّا حدث.

5

اقترب المستشار من القائد. حيّاه على حكمته في فضّ الإشكال وأبدى إعجابه بأدائه الرائع الذي سيكرّسه قائدا أوحد أمام أنذال المكتب الفيديرالي وبقيّة الأطراف السياسيّة في الكلّيّة. لكنه استفسر عن مدى مطابقة ما قاله مع الواقع.

نظر إليه الزعيم مبتسما. فقد أعجبه ثناء المستشار عليه. لكنّه سخر من الطالبة التي تقيّأت بسبب شعرة في االشطيرة. اعتبرها من الطالبات المائعات اللاّتي لا يعرفن ما يعانيه الشعب. قال له:

– لقد أكلنا الخراء من الجوع، وهي تعاف شعرة، مجرّد شعرة... يلعن ز....

أمّا «المونوناز» فأعلمه أنّه لا يعرف عنه شيئا. أهو مصنوع أم مخلوق؟ وليس مهمّا أن يعرفه. لقد كان جائعا وكلّ ما أكله كان لذيذا في الإجمال بقطع النظر عن التفاصيل. وأضاف:

– حين هربت إلى الجبل أكلت حشائش لا تخطر لك على بال، وشويت جيفا لحيوانات وطيور لا أعرفها، وها أنا سليم معافى. هؤلاء القحاب البورجوازيّات المولودات في القطن لا يعرفن الحياة، فليذهبن إلى الجحيم.

ظلّ الرفيق المستشار حائرا. كان يعرف أنّ الزعيم جلف غليظ لا علاقة له بقواعد الصحّة ولا النظافة. ولكنّه رأى النتيجة ممتازة فقد رسّخ زعامته في الكلّيّة بعد المبيت.

كان في الواقع منبهرا بهذا القائد الذي صنعه بيديه وجعل منه رأس كلّ التحرّكات، فقضى على الذين اطردوه من الفصيل السياسيّ الذي كان ينتمي إليه هو والمسؤول عن البروتوكول.

لقد بدأت اللعبة تثمر وتجاوز ما كان يحلم به حين خطّط ودبّر.

كان يريد شخصا لإزعاج رفاقه القدامى والتشويش عليهم وتشليكهم بالاستهزاء بهم من خلال هذا المتعجرف البربريّ، وها إنّه يلغيهم من الوجود السياسيّ إلغاء.

شعر بشيء من الزهو والخيلاء. خشي الإحساس بالغرور فهو، حسب ما قرأ في بعض كتابات الرفيق لينين رحمه الله، كالتواضع خصلة بورجوازيّة لا تليق بالثوريّين. ولكنّه اعتبر نفسه انتهازيّا كما يقول ذلك الجلف في تحليله للثوريّ الأصيل المترصّد بالثورة وأعدائها.

6

دخل صباح الغد إلى المشرب ليتناول قهوته الصباحيّة، ألذّ قهوة كما يحبّ أن يذكّر دائما. كانت لذّتها متأتّية من عادة لدى الزعيم عرفها أصفياؤه منذ البداية: كان لا يدخّن أبدا إلاّ بعد الثامنة صباحا وينبغي أن تكون السيجارة الأولى بعد رشفتين من القهوة المرّة.

كان يمسكها بيديه ويدعك بكفّيه جانبي الكأس البلوري أو الورقي على حدّ السواء. يوحوح مستمتعا بحرارة القهوة التي يلطّف منها جانبا الكأس. ينظر إلى رغوتها في حنوّ. ينفخ في الكاس نفحة رقيقة خفيفة. ثمّ يحسو رشفة صغيرة واحدة محدثا صوت الترشّف ثم يمرطق بلسانه متلذّذا. يضعها جانبا ويخرج من جيب معطفه علبة السجائر. يأخذ منها سيجارة يحرّكها بإبهامه على السبابة والوسطى. يقلّبها وينظر إليها، ثمّ يرفعها إلى أنفه ويمرّرها بالعرض فوق شلغومه. حينها تكون مهيّأة لملاقاة نار الوقيد أو الولاّعة. ويبدأ حفل المراوحة بين رشف القهوة وعبّ أنفاس السيجارة، فيخرج الدخان كثيفا من الأنف والفم. لقد كانت هذه الطقوس ممّا يلفت انتباه جلساء الزعيم فتعلو أسهم كاريزميّته عندهم. فكثيرا ما يقول له الواحد منهم «لم نر فنّانا في الكيوف قهوة وتدخينا مثلك يا قائد».

يبتسم ولا يجيب.

وصلت الحافلة يومها متأخّرة قليلا بسبب تعطّل في الطريق سببه مرور أحد المسؤولين المهمّين. اتّجه الزعيم إلى المشرب. حين وقف رأى زميلة تلبس سروالا مرقّطا بدوائر بنيّة وصفراء يشبه جلد النمر. كانت ترتدي معطفا بنيّا أيضا ينتهي برقبة من الفرو. جذبته إليها رائحة عطرها المدوّخة. بخّ مسارقة بعض البخّات من القارورة البلاستيكيّة على وجهه وملابسه. تقدّم من منضدة الشرب. استرق إليها النظر. رأى وجها مشعّا مليئا حيويّة: خدّان مكتنزان، أنف مكوّر في غير إفراط، عينان سوداوان كبيرتان، فم كحبّة لوز مفلوقة نصفين، شفتان تعلوهما حمرة قانية. استنشق العطر عميقا. أصابه دوار خفيف لذيذ. جرت الدماء غزيرة بين فخذيه فانتفخت قطعة القصب. جمع طرفي معطفه كالعادة.

رأى الطالبة تضع على المنضدة ورقة نقديّة قيمتها عشرة دنانير. وخرج صوتها منغّما موقّعا مغناجا:

- UN CAFÉ CRÈME ET UN PAIN AU CHOCOLAT، S'IL VOUS PLAIT

ما إن أنهت طلبها حتى سارع بوضع سبّابته الطويلة على الورقة النقديّة نفسها وخاطب العامل في المشرب

قائلا:

– قهوة كحلة وباكو كريستال.

نظرت إليه شزرا. جالت ببصرها فيه من رأسه إلى قدميه. تأملته باحتقار. عبّرت تقاسيم وجهها عن امتعاضها لكنّها لم تعلّق بشيء. أخفى العامل في المشرب ضحكته. كان صاحب المحلّ جالسا أمام صندوق الأموال. أرجع إلى الطالبة أموالها المتبقّية دون أن يقبض منها ما طلبه الزعيم.

أخذت الكأس الورقيّ وقطعة الكرواسان بالشكولاطة وغابت عن الأنظار خارج المشرب.

نادى صاحب المشرب الزعيم واختلى به في ركن وراء االمنضدة قرب المطبخ يوشوش له ويلاطفه. اتّجه بعد ذلك إلى الموضع الذي صفّفت فيه علب السجائر. أخذ علبة «مارلبورو» وقدّمها له. تأمّلها الزعيم ثمّ ردّها عليه. استبدلها له بعلبة «ميريت» ففعل الشيء نفسه دافعا بها بظهر اليد. فالزعيم وفيّ للكريستال الوطنيّ ولا يحبّ سجائر عشرين مارس لأنّها تمثّل، كما قال يوما لأصفيائه، تاريخَ الخيانة الوطنيّة وبيع الأسياد الجدد من العملاء والكمبرادور للبلاد إلى المستعمر القديم باسم الاستقلال.

صار الزعيم كلّما دخل المشرب يستهلك ما يريد بلا حساب دون أن يدفع ملّيما: القهوة والسجائر والشطائر إلّا الماء المعدنيّ. فقد كان يعتقد أنّه يحدث له مغصا في المعدة وتقطيعا في الأمعاء على ما أخبر به رفيقيه.

7

تفطّن إلى ذلك كلّه المستشار. فكّر في أنّ ما قام به صاحب المشرب يدخل ضمن الاعتراف بفضل الزعيم عليه يوم أغلق الطلبة له المحلّ. لم يحدّث الزعيم بما فكّر فيه إلّا بعد أن تيقّن من العادة الجديدة. سأله مرّة مستبلها إيّاه:

– يا قائد ياخي حلّيت كرني عندهم؟

– عند شكون؟

– عند جماعة البوفات؟

أشاح بوجهه ولم يجبه. جذبه المستشار واختلى به في ركن من المشرب. قال له همسا إنّه فهم أنّه متفق مع صاحب المشرب على كلّ شيء وأنّه هو الذي اقترح عليه، ولكنّ هذا لا يليق بقائد مثله فهو إهانة له لأنّ الحرّة تجوع ولا تأكل من ثدييها.

حين حاصره المستشار بكلامه. طلب منه الخروج إلى الساحة. انزوى به في ركن بعيد عن المارّة أمسك بخناقه وصرخ في وجهه:

– ولّيت تعلّم فيّ آش نعمل؟ شكون القائد أنا ولاّ إنت؟ وزيد حرّة ولاّ قحبة آش مدخّل في دين ولديها؟ تموت بالجوع؟! لا محسوب سيادة جدّ أصل بوك توة يوكلها؟

تراجع المستشار مستغربا سلوك الزعيم معه. حدّث نفسه بأنّ الأمور صارت تتجاوزه وأنّه استحال في مرمى سهام القائد. أضاف بعد أن فكّ رقبته من يديه:

– مزيتي سابقة على البورجوازي الحقير. لا هو ولا غيرو ينجّم يشريني، وأنا عمري لا نرضى بالفتات، هذي شويّة من حقوقنا نسترجعوا فيها من السرّاق الصغار حتّى لين نسترجعوا حقوقنا بعد الثورة من السرّاق الكلّ كبار وصغار.

لم يجد المستشار بدّا من الاعتراف بحكمة القائد وبعد نظره وتحليله الصائب. انشرح وجه الزعيم وقال له:

– منذ يوم غد لا تدفع ملّيما أزرق لولد الكلب صاحب المحلّ.

وانتهى التقريع بعناق المستشار للقائد.

من أيّام الزعيم
يوم النصر

1

كانا يوما مشهودا حقّا. ففيه تكرّست زعامة القائد نهائيّا كما تكرّست في يوم الجلاء. سمّاه بيوم النصر مثلما سمّى الثاني بيوم الجلاء. وكلاهما من الأيّام الخالدة في تاريخ الحركة الطلاّبيّة.

يومان سيحتفل بهما الشعب التونسيّ بعد إنجاز ثورته المجيدة المظفّرة، حين يُخصب حيوان الوعي الطبقيّ بويضة المجتمع الذي سيغلي كالمرجل. أمّا الانتفاضات فهي منذورة إلى التلاشي شيئا فشيئا.

2

أعلنت الإدارة منذ خمسة عشر يوما تنظيم انتخابات ممثّلي الطلبة في المبيت: طالب يمثّل الذكور من الطلبة وطالبة تمثّل الإناث.

لم يكن من الصعب أن نختار مرشّحنا. فلا أحد غير القائد يمكنه أن ينتصر انتصارا ساحقا على الجميع. فتح باب الترشّحات طيلة يومين في التوقيت الإداريّ. وبدأت الأخبار تتسرّب شيئا فشيئا من بعض أصدقائنا في إدارة المبيت.

بلغت الترشّحات في الساعتين الأوليين عشرة ترشّحات. ستّة من الذكور يمثّلون الأطراف السياسيّة الأربعة وطالبين مستقلّين. وأربعة ترشّحات من الإناث على عدد الاتجاهات السياسيّة المعروفة.

والغريب أن الترشّحات العشرة سجّلت في اليوم الأوّل عند فتح باب الترشّحات، في حين لم يسجّل أيّ

ترشّح في بقيّة اليومين. كان الجميع يترقّب غلق باب الترشّحات.

لكنّ القائد اختار بتوصية من رفيقه المستشار والمسؤول على البروتوكول أسلوبا آخر. إذ طفقوا يزورون الغرف غرفةً غرفةً، ويطرقون الأبواب بابا فبابا، اتّباعا لخطّة الاتصال المباشر بالجماهير الطلاّبيّة واستشارتها وإشراكها في اختيار مرشّحها. هذه هي الديمقراطيّة المركزيّة الشعبيّة التشاركيّة.

حين يفتح زميل من الزملاء باب غرفته يطلبون بكلّ تهذيب الإذن لهم بالحديث لمدّة خمس دقائق لا أكثر. تبدأ الزيارات على الساعة الثامنة والنصف مباشرة، بعد العشاء ونشرة أخبار الثامنة، في سرّية تامّة. في تلك الأيّام أصبح سكّان الغرفة 122 الثلاثة ينامون منتصف الليل أو بعده بقليل.

مسك المسؤول عن البروتوكول كنّشا اشتراه للغرض يسجّل فيه آراء الطلبة ويفرز أصواتهم قبل التصويت. يشرع في أخذ التقييدات مع بداية الجولة ثمّ يحصي الأصوات ويحلّل الآراء.

كانت أسئلة زوّار الغرف في الليل بسيطة تدور على محورين ضبطهما المستشار: ماذا تطلبون من ممثّل الطلبة لدى الإدارة لتحسين ظروف السكن والأكل والنقل... إلخ؟ ومن ترشّحون من الطلبة؟

كان الاتجاه العامّ يذهب ّإلى ترشيح العيفة بن عبد الله، الطالب بالسنة الثالثة تاريخ وجغرافيا. أمّا الأسباب الداعية إلى ذلك فهي شخصيّته الكاريزميّة وما خلّفه تدخّله لحلّ مشكلة غلق طلبة المكتب الفيديرالي لمشرب الكليّة من أصداء جيّدة.

فذاكرة الجماهير لا تنسى من خدمها وأخلص إليها. ولولا تدخّله يومها لظلّ أغلب الطلبة يتضوّرون جوعا، خصوصا منهم طلبة المبيت وطالباته.

وإذا استثنينا حوالي عشرة غرف يسكنها الطلبة الستّة المترشّحون في مبيت الذكور ومن معهم وبعض أبناء جهاتهم وعشيرتهم، فإنّ البقيّة كانوا يرشّحون العيفة القائد.

وبذلك بانت المسألة. العيفة أو لا أحد. ولكنّ القائد ظلّ صامتا لا يتدخّل إلّا لماما بالموافقة على ما يقوله رفيقاه.

يوم غلق الترشّحات، طلب المستشار، حوالي منتصف النهار، من القائد أن يستعدّ لتقديم ترشّحه في الإدارة حالما تفتح أبوابها في الساعة الثانية.

أحسّ أنّه يتمنّع دون أن يرفض. سأله بوضوح إن كان سيترشّح. مهمه قليلا وقال له:

- نوافق على شرط...

- وشنوّة ها الشرط؟

- تترشّح معايا سلمى على مبيت البنات.

- شكون سلمى اللي تغنّي في الحفلات؟

- متاع الأنكليزيّة السمحة المزيانة...

استغرب المستشار شرط القائد. ظلّ يفكّر في الحكمة الثاوية، ولا شكّ، في ما قاله القائد ويتثبّت في الآن نفسه من الطالبة سلمى التي يقصدها.

وبينما هو شارد يفكّر أو كالشارد، لمح العيفة سلمى تتّجه صوب مدخل مطعم المبيت فهمس إلى المستشار منبّها إيّاه إليها. تذكّرها. صارت المشكلة مفضوضة لا تتطلّب إلّا بعض الجهد لإقناعها. نادى عليها من بعيد فتوقّفت تنتظرهما. كان اختياره لها مذهلا فعلا فهي أكثر الطالبات شهرة.

4

على طاولة الزعيم بالمطعم جلس ثلاثتهم. اتّخذ المستشار له مقعدا بجانب الزعيم واستقرّت سلمى قبالتهما.

كانت تنظر إلى العيفة بغنج أثاره كالعادة. تجرّأ أكثر هذه المرّة لينظر إليها متفحّصا وجهها بلهفة غير خافية. تذكّر حلم تلك الليلة المباغت اللذيذ. لم يكن يسمع في أغلب الأوقات ما كان يقوله المستشار. أخذه من الحديث حلم اليقظة الذي انغمس فيه والقمر الذي يشع أمامه بصدر نافر شهيّ مازال يتذكّر وخزه يوم قبّلته. ولمّا حانت منه استفاقة بعد أن سرح بخياله بعيدا سمع المستشار يقول لها:

– القائد اختارك إنت باش تترشّح معاه لانتخابات ممثّلي الطلبة لدى إدارة المبيت...

– أنا؟

– إي نعم إنت... الزعيم يؤمن بالمرأة والمساواة التامّة وبالطاقات الشابّة، وعندو حدس قيادي لا يخطئ...

– أما أنا ما نفهمش في السياسة...

حينها تكلّم الزعيم:

– ما يهمكش نورّيهالك... تبعني بركة واسمع اللي نقلك...

– وكيف نخسر؟

ردّ عليها المستشار في استياء مستنكرا:

– تخسر؟ إنت نجمة لدى الطلبة يعرفوك الكلّ تقريبا ويحبّوك. وزيد أحنا مع القائد متاعنا ما نعرفوش الخسارة... ما عادش تعاود الكلمة هذي، القائد يتغشش عليك بعد ما حطّ فيك ثيقتو بكلّها.

عقّب القائد:

– إيه بكلّها...

– ما نقصدش يا قائد... سامحني.

ظهر البشر على وجهه وابتسم لها ابتسامة حاول أن تكون ودودة وقد شعر بأنّ آلته تمدّدت واستطالت.

5

على الساعة الخامسة إلّا عشر دقائق كان العيفة وسلمى في مكتب مدير المبيت يقدّمان ترشّحهما باسم قائمة «النضال الطلاّبي الراديكاليّ».

رفع المدير رأسه ونظر إليه من تحت نظّارتيه وهو يسمع اسم القائمة. وقال:

- الترشّحات فرديّة يا أستاذ...

- قيّد وآش يهمّك فينا...

- ما نجمش ممنوع عليّ...

اتّجه القائد صوب باب المكتب. لحقت به سلمى ظنّا منها أنّه سيغادر. أحكم إغلاق الباب. توجّه وراء المكتب حيث يجلس المدير. مسكه من رقبته وجذبه من ربطة العنق يريد خنقه. صرخ في وجهه:

- يا طحّان كيف توصّل للبوليسيّة القائمات تقوللهم على الاتجاهات السياسيّة متاع المترشّحين ولاّ ما تقولش؟

أومأ برأسه مؤكّدا ما قاله الزعيم.

- إذن سجّل أنّنا اتجاه سياسيّ جديد في المبيت والكليّة اسمه خطّ النضال الطلاّبي الراديكاليّ، فهمت ولاّ نعاود لجدّ بوك؟

6

روت سلمى ما وقع في مكتب المدير للطالبات وللمستشار حالما خرجت.

كانت قد طلبت، إثر إتمام الإجراءات الإداريّة، من العيفة أن ينحني لتقبّله على سبيل شكرها له على ثقته الغالية في شخصها المتواضع. جثا على ركبتيه أمام مكتب مدير المبيت. صارا في نفس القامة. احتضنها واضعا يديه على ظهرها. أحسّت بهما ترتعشان، تنقبضان وتنبسطان في اضطراب. قبّلته قبلة عميقة على خدّه وغرزت مرّة أخرى إبر اللذّة النافرة من صدرها على صدره ورقبته. كان يسبح في بحر من القطن الليّن. كاد يعتصرها ولم يعرف كيف انفلتت من يديه الضخمتين وغادرت الإدارة مسرعة.

لم ترو هذه الحكاية إلّا إلى صديقتها في الغرفة. لا تدري هل أحبّت ذلك منه أم اشمأزّت، ولكنّها أحسّت بشهوته وغلمته تخترقان جسدها. لم تعرف شيئا شبيها بذلك من قبل. ذكرها بالوحش في الجميلة والوحش، وبعشيق السيّدة شاترلي في الوقت نفسه. شعرت حين عانقها بهيجان الثور فيه وجموحه من دقّات قلبه القويّة المتوتّرة وأحسّت حين جثا على ركبتيه بتحنان وتعطّف وضراعة واتّضاع في آن واحد. كلّ شيء يدلّ على أن

القائد يرغب فيها بشدّة ويتذلّل منقادا إليها. تصوّرت نفسها فراشة تجذبها النار المتقدة فيه. لم تعرف أتسرّ بذلك وتستبشر أم تبتئس وتغتمّ؟ في الحالات جميعا تضايقت وأصابها قلق. وفي الحالات جميعا صار القائد عندها جذّابا يرضي أنوثتها ومقزّزا تخشى افتراسه لها.

صارت زميلتها في الغرفة والطالبات في أروقة المبنى يسمعن سلمى تدندن بلحن أغنية اسمهان:

يا حبيبي تعال الحقني شوف اللي جرى لي

من بعدك

سهرانة من وجدي بناجي خيالك

مين قدك

وأنا كاتمة غرامي وغرامي هالكني

ولا عندي لا أب ولا أم ولا عم أشكي له

نار حبك

7

شاع في المبيتين أنّهم أمام ممثّل للطلبة حقيقيّ سيدافع عن مصالحهم بقوّة شخصيّته وإقدامه وإصراره على تحقيق مطالبهم. إنّه ببساطة قائد يعوّل عليه.

فبعد غلق باب الترشّحات انسحب الطالبان المستقلّان وصار عدد المرشّحين خمسة لكل مبيت من المبيتين.

شكّل القائد مجموعة من الفتيات للقيام بالحملة الانتخابيّة لسلمى باتّباع الأسلوب الذي اتبعه القائد: غرفة غرفة وبابا بابا وطالبة طالبة. لم يكن من الصعب إقناع الطالبات بوجاهة ترشيح سلمى فهي معروفة لديهنّ بما أنّها ذات صوت في الغناء ملائكيّ عرفت بتقليد فيروز وأميمة الخليل ومرسال خليفة في الحفلات الغنائيّة التي تنتظم في المبيت من حين إلى آخر. تصعد إلى الركح عند زيارة هذه الفرقة الملتزمة أو تلك لتغنّي في فترة استراحة الفرقة فتفوق بغنائها الرقيق الفاتن غير المصحوب بالآلات الموسيقيّة ما تؤدّيه تلك الفرق الملتزمة، حتّى صار لها حفل كلّ أسبوعين أو ثلاثة ينظّمه الطلبة أيام السبت.

وفي هذا حكمة أخرى من حكم الزعيم لم يتفطّن لها رفاقه إلّا بعد أن اختارها لمشاركته في قائمة المرشّحين لتمثيل الطلبة. والأرجح أنّها كانت منه رمية من غير رام بما أنّه لم يسمعها تغنّي ولا يعرف هذا الجانب فيها.

8

جمع القائد مع مستشاره والمسؤول عن البروتوكول مطالب الطلبة وصاغوا بيانا انتخابيّا لم يعرفه الطلبة في تقاليدهم الانتخابيّة. كانت المطالب بسيطة جدّا أو مستحيلة. اعتبر القائد أن مثل هذه المطالب الإصلاحيّة لا تعدو أن تكون من باب تلطيف القمع الشامل وإدامة حياة النظام الرجعيّ العميل لدوائر رأس المال المالي العالميّة. خاطب المستشار قائلا:

- توة هذي مطالب؟ قداش تافهين ها الطلبة...

- صحيح أما يلزمنا نفاجؤوا الأعداء بحاجة جديدة.

- شوف البرنامج الوحيد المناسب في ها البلاد الكلبة هو أن نضيف إلى القمع وعيَ القمع ليكون القمع أشدّ، وهكذا نمهّد للغليان الثوريّ...

نظر إليه المستشار، وكان عمليّا لا يحبّ كثيرا الثرثرة الثوريّة، وقال:

- صحيح يا قائد أما يلزمنا نسايسوا وعي الطلبة ودرجة نضجهم.

- باهي تحبّ تفاجأ الطلبة؟ أنا موافقك. اكتب اللي نملّو عليك.

أملى القائد بيانا واضحا، لأوّل مرّة يقول كلاما مفهوما، ألّف فيه بطريقة عبقريّة مدهشة بين جميع ما اقترحه الطلبة. لكن في آخر البيان أضاف القائد مطالب لم ترد في ما دوّنه المسؤول عن البروتوكول في كنّشه الصغير.

- «نطالب الإدارة بتوفير الواقي الذكريّ لطلبة المبيت مجانا حماية لهم من الأمراض المنقولة جنسيّا».

- «ستعمل قائمة النضال الطلاّبي الراديكالي على تمكين الطلبة إناثا وذكورا من التزاور للتشارك في إعداد دروسهم وتنمية الحسّ النقديّ الجدليّ بينهم».

- «نطالب بتهيئة مقاعد محميّة في محيط حديقة المبيت (المنطقة التي يسمّيها الطلبة سيبيريا) حمايةً لهم من تقلّبات الطقس».

- «تمكين الطلبة من السهر في غرفة التلفزة إلى الساعة التي يريدون، والتحكّم بأنفسهم في القنوات التي يمكن مشاهدتها مع توفير جهازين جديدين».

- «تركيز هاتف داخليّ في كلّ طابق من طوابق مبنيي الإناث والذكور لتسهيل التواصل بين الطلبة».

كان المستشار يكتب ما يمليه عليه القائد مندهشا. وحين أتمّ البيان اعتبر المستشار أن بعض ما ورد في النقاط الأخيرة قد تجعل الطلبة لا يصوّتون لقائمتهم. قحر إليه غاضبا:

- ليذهبوا إلى الجحيم، منافقون. ماكش ترى فيهم في سيبيريا آش عاملين؟ ما سمعتش نهار نهارين وحدة تطيّح في صغير؟ هذا بكلّو لغياب الحرّيات الجنسيّة.

- نعرف أما موش الطلبة الكلّ وزيد هذي حاجات تتعمل بالسرقة وما نحكيوش عليها

- باهي ما لا أنا نحبّ كل شيء بالمكشوف... هذي نسميها في نظريّتي الثوريّة الطبيعيّة الراديكاليّة الشعبيّة تقنية الصدمة... يلزمنا نصدموا الوعي المتخلّف بأفكار جريئة وتوة تشوف. ما تعرفش اللي الطلبة الكلّ بنات وأولاد داهم في أفخاذهم... وزيد التصويت سرّي حتّى حدّ ماهو باش يحشم.

حار المستشار جوابا. وأخذ يتدبّر حكمة القائد ونظريّته في الثورة من أسفل. وجد أن المطالب التي أثبتها مطالب فعلا شعبيّة وتستميل الجماهير الطلاّبيّة المناضلة. وسيكون حظّ القائمة، بفضل هذه الإضافات العبقريّة وتقنية الصدمة التي بشّر بها الزعيم، أكبر حين يستجيب البيان الانتخابيّ إلى مطالبهم التي لا يتكلّمون عنها جهارا.

9

وحدها سلمى شعرت بالحرج في أن يتضمّن البيان الانتخابي للقائمة التي وجدت نفسها فيها على وجه

الصدفة تلكَ المطالبَ.

طلبت عن طريق المستشار لقاء بالزعيم. جلس ثلاثتهم في قاعة التلفزة في الصباح مباشرة بعد فطور الصباح. فقد تفرّغ الطلبة المترشّحون لحملتهم الانتخابيّة مباشرة بعد غلق باب الترشّحات بيوم. تمتدّ الحملة على ثلاثة أيّام مع يوم رابع للصمت الانتخابيّ قبل يوم الاقتراع.

كان الزعيم مستبشرا بوجودها منشرحا لرؤيتها. وكانت متضايقة بسبب ما وقع في المرّة السابقة. عبّرت عن قلقها من الحديث في تلك المسائل الجنسيّة وهي فتاة ستعتبر منحلّة أخلاقيّا إذا دافعت عن هذه المطالب.

أوضحت أنّها شخصيّا تراها مطالب متطوّرة ومعقولة مثلما رأت ذلك في المبيتات الجامعيّة في الخارج. بل إنّ تساكن الذكور والإناث أمر عاديّ عندها.

انشرح صدر الزعيم فقاطعها قائلا:

– تحبّ نحطّوا هذا في البيان ونطالبوا بحقّ الطلبة في السكن المشترك؟

– لا... لا... موش هذا اللي نقصدو... هكاكة كانت تشخر زادت بفّ...

عادت إلى نسق حديثها متذمّرة من تلك النقاط. فقد اعتبرت أن وجود اسمها في البيان مع صورتها سيكون حجّة لمن يريد إقصاءها بأن يشي بها إلى والدها ووالدتها.

عبّر المستشار عن تفهّمه لموقفها. حاول أن يقنعها بمضمون المطالب وطابعها الشعبيّ لدى الطلبة وضرورة اتباع منهج الثورة الطبيعيّة الشعبيّة الراديكاليّة الذي يدعو إليه الزعيم، بما في ذلك من مخالفة للرأي العامّ والحسّ المشترك واعتماد أسلوب الصدمة بالأفكار الثوريّة. بدا مقتنعا بحكمة القائد أكثر من القائد نفسه.

كان الزعيم ينظر إلى سلمى بتنّورتها السوداء التي يحدث لونها تباينا واضحا مع بياض رجليها وركبتيها وجزء من فخذيها. أخذ مذ شرعت في الحديث يتأمّل شفتيها وتقاسيم وجهها الملائكيّ. ينزل بصره أحيانا إلى صدرها الذي يحميه قميص أزرق غامق مفخفخ طويل منسدل على التنّورة. كان يستكشف ما يخفيه القميص متلصّصا من جهة الرقبة.

سرح بخياله في جسدها ينهشه نهشا: لحس لرقبة، اعتصار باليدين، مصّ للشفتين، ارتشاف للرضاب،

تمزّز للسان، عضّ للنهدين، خمش للظهر، لعق للفخذين والربلتين. ولم يستفق من حلم اليقظة إلّا حين تحرّكت يداه اللتان كانتا في جيبي المعطف غريزيّا لتسوية هيئة الآلة وقد تمطّت واستطالت.

بدأت أطراف النقاش بين سلمى والمستشار تتبعثر في كلّ اتجاه. وأخيرا نطق الزعيم بقوله الفصل:

– موش مشكلة رفيقة، توة نوزّعوا البيان وحدو وورقة أخرى دعائيّة فيها تصاورنا أحنا الزوز واسمي واسمك...

قفزت سلمى من كرسيّها متهلّلة الوجه منبسطة الأسارير باشّة منشرحة كمن انزاح عنه همّ ثقيل. مسكت الزعيم من رأسه. نظرت في عينيه نظرة حنونا جذلى وقبّلته على خدّه قريبا من شفتيه شاكرة:

– والله لا فمّة قائد كيفك، ربي يفضلك لينا.

وغادرت القاعة تجري تكاد ترقص في طرب.

كان الزعيم وقتها يستمرئ القبلة المباغتة ويستطيب خيال صاحبتها الذي لم يفارقه إلى أن خلد إلى النوم ليعيش حلمه الجميل.

10

كان فوز قائمة الزعيم ساحقا. فلم يحصل كلّ منافس من المنافسين الثمانية للقائد وسلمى على أكثر من صوتين.

وكان الحفل ليلة التصريح بالنتائج بهيجا. غنّت سلمى للحاضرين في الساحة الفاصلة بين مبنيي المبيت كما لم تغنّ من قبل. أدّت الأغاني الفيروزيّة التي تحبّها وبعض الأغاني الملتزمة، وختمت وصلاتها المتتابعة التي تفاعل معها الجمهور بأغنية أهدتها أمام الجميع إلى القائد المفدّى ففاجأتهم بها كما فاجأت الزعيم نفسه.

كانت أغنية في عرف الحركة الطلاّبيّة من الأغاني الرجعيّة المائعة التي تتحدّث عن الحبّ. شرقع صوتها حين أدّتها بكلّ جوارحها وبصوت قويّ مؤثّر يدلّ على أنّها تعي كلّ حرف فيها:

حبيبي يسعد أوقاته ع الجمال سلطان

في نظرته وابتساماته فرحان فرحتك يا زمان

ولما يخطو بقوامه ترقص الأغصان

ولما ينعم بكلامه تعزف الألحان

أحلف بحبه وغرامه أصدق الأيمان

عمر الخيال ما يجيبش مثال في جماله

زي جمال حبيبي

حبيبي زي القمر قبل ظهوره

يحسبوا المواعيد زي القمر يبعث نوره

من بعيد لبعيد

زي القمر بس جماله كل يوم يزداد

وكل ما يهل هلاله تنعاد الأعياد

والليله عيد ع الدنيا سعيد

أمّا الزعيم فقد ألقى قبل الوصلة الغنائيّة خطبة ناريّة ملتهبة حيّى فيها الجماهير الطلاّبيّة المناضلة وشكرها على وفائها لقيادتها التاريخيّة المخلصة، مؤكّدا على تجذّر الوعي الثوريّ لدى طلبة المبيت إناثا وذكورا. ووعد الحاضرين الذين كانوا بين الفينة والأخرى يقاطعونه بالتصفيق الذي يقوده المسؤول عن البروتوكول، ورفع شعار «يحيا قائدنا... يحيى... يحيى... يحيى» أو «أوفياء... أوفياء... للقائد وللثوراء» (هكذا كان الطلبة ينطقونها لمقتضيات السجع ولا شكّ). وختم الزعيم خطبته العصماء بالعمل، رفقة الرفيقة المناضلة الشابّة الوفيّة الصامدة عروس الثورة، كما وصفها، سلمى، على تنفيذ ما قدّماه من وعود في البرنامج الانتخابيّ ابتداء من يوم الغد.

يومها سمّى الزعيم يوم انتخابه ممثّلا للطلبة لدى إدارة المبيت: يوم النصر. فصارت التسمية على كلّ لسان. لكنّ أهمّ ما وعد به الطلبة أنّ طريق الانتصارات على درب الثورة سيستمرّ والأفراح الثوريّة قادمة لا محالة.

11

كادت السهرة أن تفسد بعد أن انفضّ الجمع الغفير. فقد نادى المستشار سلمى وقرّعها على أداء الأغاني المائعة مؤكّدا أنّه عليها أن تنضبط للخطّ الثوريّ الذي صارت تنتمي إليه وألّا ستشوّه اختياراته الثقافيّة الرصينة المطوّرة للوعي، بدل الميوعة والتحلّل الأخلاقيّ وأغاني الرجعيّين والسلطة. فلا غناء مصريّا مقبولا إلّا ما غنّاه الشيخ إمام وكتبه أحمد فؤاد نجم.

كانت واقفة تنصت إليه خافضة بصرها منكسرة تكاد دموعها تنزل على جفنيها. وكان الزعيم ينظر إليها مستمتعا بانكسارها واضطرابها.

التفتت إلى القائد مستنجدة. جمعت ما تبقّى لها من قوّة بعد أن سمعت وسخ أذنيها وتحمّلت عن مضض تأنيب الرفيق.

ظلّت تنظر إلى القائد كالمتوسّلة ليخرجها من الحرج والضيق اللذين وضعه فيهما كلام المستشار. زمّت شفتيها تكاد تبكي وقطبت جبينها كالطفل المذنب، جمعت يديها إلى بطنها وأوّل صدرها كالتلميذ النجيب وهي تصغي إلى درس الزميل في الأخلاق الثوريّة.

انتزع الزعيم ذراع سلمى اليمنى وكانت على يساره. مسكها بيسراه الغليظة اليابسة من يدها وهو يتحدّث إليها وإلى رفيقه المستشار. كان يمتّع نفسه بملمس اليد الرخيّة الملساء والأصابع الصقيلة الليّنة والكفّ الرطيبة الناعمة كأنّه يستلهم منهما كلامه الذي انساب في أذنيها كالماء الرقراق.

فسّر لهما، مركّزا نظره على المستشار، أنّ الحبّ في النظريّة الطبيعيّة الراديكاليّة الثوريّة كالدين تماما. هو زفرة الأنفس المقهورة والضمائر المعذّبة في بحثها عن تحقيق ذاتها ولو بشكل مقلوب في عالم أكل رأس المال حشاشة قلبه، وأنّ الحبّ سعي الكائن إلى كينونته بطريقة عفويّة يجتمع فيها المادّي بالروحي والواقعيّ بالخياليّ للوصول إلى تكامليّة الكيان المنشطر باغترابه عند واقعه. لذلك تكثر في الأغاني العاطفيّة التأوّهات والدموع. فالحبّ نهر الدموع المكلّل بالورود والزهور ليقطف الكائن المغترب زهرة الحياة.

صدم موقف القائد المستشار. فهم أنّ في كلامه انتصارا لسلمى فاعترض في لطف قائلا:

– لكن الرفيق ماركس يعتبر الدين أفيون الشعوب؟

نظر إليه في حنق. اتّهمه مباشرة بأنّه لم يفهم فكرة ماركس العظيم. فالأفيون في تحليله دواء لأوجاع البشريّة المحرومة يزوّد الناس بفراديس وهميّة تخفّف معاناتهم. إنّه مشروب روحيّ يبعث في النفس الآمال والحبّ والإنسانيّة.

اعتذر للرفيق بأنّه لم يجد الوقت لتفسير موقع الحبّ من النظريّة الثوريّة الطبيعيّة الراديكاليّة وأساسها البيو – أخلاقيّ وقاعدتها الروحانيّة الفوقيّة المنبثقة من البناء المادّيّ المتشكّل من عمل الخلايا العصبيّة، وأثرها في توجيه الدماغ الجماعيّ الذي هو الجماهير إلى التحرّر من نير رأس المال.

كان يتكلّم بسرعة متوتّرا كأنّه يعرض عن ظهر قلب بعض ما حفظه. ولم يكفّ في الأثناء عن دعك كفّ سلمى بأصابعه الطويلة الصلبة، ودلك ظهر يدها وفرك أصابعها والتمسيح على يدها كلّها في خشونة وقسوة موجعة أحيانا، وفي لين ورخاء ورقّة أحيانا أخرى.

قال الرفيق المستشار بعد أن أصغى بانتباه إلى نظريّة القائد في الحبّ والأفيون دون أن يتأكّد من أنّه فهم على وجه الدقّة ما سمع:

– ما أعظمك يا قائد، كل يوم، لا، كلّ ساعة نتعلّموا منك الجديد في الفكر الثوريّ متاعك.

صفّقت سلمى بعد أن تمكّنت بالصدفة من انتزاع يدها من يد الزعيم حين لانت أصابعه وخفّفت من حصار يدها. وقالت في تغنُّج وتدلُّل:

– يحيا القائد، وحدك فاهم الدنيا والناس، ربّي يفضلك لينا.

وفرّت بيدها وجلدها مسرعة نحو مبنى الطالبات.

12

ظلّ الزعيم يتنعّم بذكريات اللمس والدعك والتمسيح في يسراه التي لم يستعملها وهو ينظّف أسنانه، بحسب عادته الجديدة، قبل أن يأوي إلى فراشه. لم يشأ غسلها بالماء حتّى لا تذهب منها رائحة سلمى... آه من رائحة سلمى الزكيّة المدوّخة.

مذ دخل مبنى المبيت في اتجاه الغرفة كان كالمأخوذ المهموم المضطرب. يحشر يسراه تارة في جيب معطفه

كالخائف على ذهاب رائحتها ونعومة ملمسها، ويخرجها تارة أخرى يرفعها إلى أنفه يتشمّمها، يمرّرها على فمه كالمقبّل، يمسح بها وجهه كالمتيمّم.

انحشر في فراشه. لم يفارقه وجه سلمى. بدأت الخيالات الحلوة الشهيّة تتتابع في شاشة رأسه. كانت سلمى تظهر له وتغيب ببياضها الناصع وقدّها الرهيف الممتلئ وجسمها الطريّ الصغير وفخذيها الرخيّين الرغيدين ونهديها البارزين النافرين.

تبرز له مرّة غائمة الصورة منطمسة الملامح يرنّ في أذنيه صوتها الملائكيّ وهي تغنّي وبغنجها ودلالها وهي تكلّمه، وتتجلّى له مرّة ثانية في هيئة واضحة دقيقة ناعمة تكشف تفاصيل جسمها الفاتنة، وتلوح له مرّة ثالثة بوجه صبوح ضاحك مبتهج يشفّ عن سحنتها البهيّة وأساريرها المنبسطة.

ظلّ على تلك الحال لا يعرف النعاس إلى جفنيه طريقا. يتقلّب مع الصور والأشكال كالمحموم. أدخل يسراه في مكمن الوجع الذي استطال وتمدّد. طفق يفرك في لين ويدلك ويدعك، ثمّ أخذ يحكّ ويفرك إلى أن أحسّ بالمادة اللزجة تلتصق بيده وتغمر الجزء الأسفل من بطنه.

شعر بارتخاء بعد اضطراب، وفتور بعد شدّ وتوتّر، وسكينة بعد هرج. نفى الرقادُ عنه الأرقَ والإنهاك إلى أن دقّت، في الخامسة صباحا، ساعته البيولوجيّة ليأخذ قصبته ويشرع في حفله اليوميّ.

يومها لم يطل النفخ في الشبّابة. فما إن استيقظ رفيقاه حتّى شرع يترنّم بصوته الأجشّ في نغمة شجيّة بأغنية بدويّة لم يسمعا بها من قبل:

عل جدي الريم يا سلمى عل جدي الريم

عل جدي الريم وسايس عظمك راح رميم

يا سلمى

وكان عندي باش يا سلمى

وكان عندي باش في عرسك نذبح لكباش

يا سلمى

جملك ساقوه يا سلمى جملك ساقوه

جملك ساقوه رحلوا من الدار وخلوه

يا سلمى

جمل بوك يدادي يا سلمى جمل بوك يدادي

جمل بوك يدادي ضربوه بحب الصيـَّادي

يا سلمى

جمل بوك عقور يا سلمى جمل بوك عقور

جمل بوك عقور دوّرته ما باش يدور

يا سلمى

جمل بوك حنان يا سلمى جمل بوك حنان

جمل بوك حنان يعزم ويشق البلدان

يا سلمى

قداش نلاوي يا سلمى قداش نلاوي

قداش نلاوي العين سودة والمحزم خاوي

يا سلمى

كان عندي منين يا سلمى كان عندي منين

كان عندي منين وفي عرسك نذبح ثورين

يا سلمى

وكان عندي قدرة يا سلمى كان عندي قدرة

كان عندي قدرة في عرسك نذبحلك بقرة

يا سلمى

كان عندي رمّه يا سلمى كان عندي رمّه

وكان عندي رمَّه نشريلك تونس باللمّه

يا سلمى

كان عندي راده يا سلمى كان عندي رادَه

وكان عندي رَادَه في عرسك نعمل عوَّاده

يا سلمى

جمل بوك مقبّل يا سلمى جمل بوك مقبّل

جمل بوك مقبّل جحفه وبناويت تهبّل

يا سلمى

جبل بوك يمردس يا سلمى جمل بوك يمردس

جمل بوك يمردس حلقه وطواقير تبقّس

يا سلمى

كان رفيقاه يبتسمان ويتصنّعان التفاعل مع الأغنية وكلماتها والإعجاب بصوت الزعيم المزعج. فهما أنّه حرّف اسم المعشوقة في الأغنية الأصليّة ولا دليل لهم على ذلك. وحين سألاه أجاب أنّ الأصل هو «عيشة». وحفظ الأغنية التي أعجبته حين حضر عرسا في الدشرة التي تقطن فيها أخته الوحيدة.

وقر في ذهنهما بعد هذه الترنيمة الموسيقيّة المفعمة شجنا أن القائد عاشق ولهان.

من أيّام الزعيم
يوم الجلاء

1

نزل المنشور الوزاريّ المنظّم لانتخابات ممثّلي الطلبة بالمجالس العلميّة كالصاعقة على الطلبة من مختلف الاتجاهات والفصائل السياسيّة.

فقد تغيّر الموعد المألوف وقدّمت الانتخابات لمنتصف شهر نوفمبر. والأخطر أن الآجال بين الإعلان والترشّحات والحملة الانتخابيّة والتصويت كانت متقاربة جدّا. ولم تفرغ الفصائل السياسيّة بعد من انتداب الطلبة الجدد والتعرّف إليهم خصوصا أنّ القرارات الجديدة في توزيعهم على مبيتات مختلفة لم تسمح بالقيام بهذه المهامّ السنويّة المعهودة.

عُقد اجتماع عامّ دعا إليه الطلبة الوحدويّون لمناقشة القرارات الفوقيّة المسقطة على الطلبة وكيفيّة الردّ عليها. كانت النيّة واضحة وتوزيع الكلمات في الاجتماع أوضح: المقاطعة ولا شيء غير المقاطعة حتّى تستجيب سلطة الإشراف لمطلب تأجيل الانتخابات إلى موعدها وألّا سيتواصل تمثيل الطلبة بالأشخاص المنتخبين في السنة المنقضية.

كان الاجتماع حاشدا، لا بسبب موضوعه، فمثل هذه الانتخابات لا تشارك فيها إلّا نسبة ضئيلة جدّا من الطلبة، بل بسبب توقيته فقد كان في الفترة الفاصلة بين الدروس الصباحيّة والمسائيّة، وبسبب تنظيمه قرب باب المشرب حيث يتّجه الطلبة، في مثل تلك الساعة، إليه لاقتناء ما يسدّ الرمق.

وشوش المستشار للزعيم منبّها إلى المناورة التي يريد من ورائها الطلبة الوحدويّون الحفاظ على المقاعد

الأربعة التي يسيطرون على نصفها منذ الانتخابات الأخيرة.

كان الصوت المعارض الوحيد هو صوت فصيل يساريّ ماركسي لينيني معروف بأنّ شعاره الوحيد هو «لا... ثمّ لا» في وجه أيّ اقتراح. فإذا كان مصدره السلطة فهو مرفوض وإذا كان موقفا من فصيل آخر ضدّ السلطة فهو مرفوض أيضا. لكنّ قائدهم الذي يتكلّم عنهم عييّ ركيك لا يقنع أحدا لضعف حججه وخروجه دوما عن الموضوع.

اتّفقت الفصائل السياسيّة الستّة على طلب تأجيل الانتخابات. كانت الخطّة معدّة بإحكام: أحاديث موجّهة نحو التأجيل، قراءة بيان المكتب الفيديرالي الذي يضمّ جلّ الأطراف الفاعلة، إمضاء الطلبة على عريضة تطالب الإدارة بالتأجيل.

2

لم يكن الموضوع بالنسبة إلى الزعيم جديرا بالاهتمام. كاد يترك الاجتماع لو لم يلمّح له المستشار إلى أن انتصاره في الانتخابات مضمون بحكم ما لمسه الطلبة فيه من حسّ قياديّ وعمليّ عندما حلّ مشكلة الشطائر الفاسدة في المشرب.

تذكّر أن صاحب المشرب سأله في ذاك الصباح عمّا إذا كان سيترشّح للانتخابات فلم يجب. التقط تلميحات الرفيق المستشار وسكنت حكايةُ الترشّح رأسَه. فقد ذاق طعم الانتصار في يوم النصر، ولا بدّ من تلقين الفصائل السياسيّة المنافسة في الكلّيّة درسا شبيها بدرس المبيت. فأكثر هذه الفصائل انهزم في معركة ممثّلي طلبة المبيت لدى الإدارة.

اختار من وقتها، وقبل الترشّح النهائيّ اسما ليوم الفوز بمقاعد المجلس العلميّ: يوم الجلاء.

سيكون يوما للقضاء نهائيّا على آخر الرجعيّين في الحركة الطلاّبيّة، فهم أعداؤها الداخليّون إسهاما من الزعيم في إنضاج سياقات الثورة الطبيعيّة الراديكاليّة الشعبيّة.

3

كاد الجمع ينفضّ، بعد أن توضّح التوجّه العام نحو التأجيل. شرع زعيم الوحدويّين وعضو المكتب الفيديرالي في تلخيص نتائج الاجتماع. قاطعه العيفة بن عبد الله واضعا كفّ يديه اليمنى على أصابع يده اليسرى، وهي علامة طلب توضيح أو نقطة نظام.

ارتقى الزعيم بمساعدة من المستشار طاولة الخطابة. جال ببصره في الجموع أمامه بنظرة صارمة حرّك خلالها وجهه من اليمين إلى اليسار والعكس بالعكس. فهم الجميع أنّ في المسألة أمرا جللا. ساد الصمت. وأخيرا نطق الزعيم:

– يا جماهيرنا الطلاّبيّة العظيمة المناضلة، أيتها الورود الحمراء المنثورة في سهول الثورة القادمة على مهل، يا نسور البلاد التي ستنقضّ في اللحظة المناسبة على جيف البورجوازيّة والرأسماليّة والكرنمبرادوريّة (هكذا نطقها) العميلة.

إنّنا اليوم في منعطف تاريخيّ حاسم: إمّا أن ننتصر وإمّا أن ننتصر. لا خيار لنا. ولكنّني أرى الرفاق الذين سبقوني لم يفهموا هذا جيّدا، لأن قراءتهم للواقع ترتكز على ردّ الفعل لا على خطّة الثورة ومسارها الطبيعيّ. بربكم قولوا لي ما الفرق بين انتخابات غدا وانتخابات بعد شهر؟ هل صارت الثورة رهينة تواريخ تفرضها السلطة فنحتجّ عليها، أو تقترحها بعض الفصائل فترفضها السلطة؟ هذا يسمّى خيانة لتموّجات الثورة وتياراتها التحتيّة.

إنّ ما تريد بعض الأطراف الفاشلة الرجعيّة جرّ الحركة الطلاّبيّة إليه مضحك بكلّ المقاييس الثوريّة. لكن يدا واحدة تشير إلى نقطة واحدة: يد الثورة التي تشير إلى الحرّيّة، وغير هذا من التواريخ والأجندات الخفيّة والمناورات الرجعيّة لا تعنينا في شيء إلّا بمقاومتها ومواجهتها لتحصين الجبهة الداخليّة ضدّ أعداء الحركة الطلاّبيّة المناضلة.

إنّ انتخابات ممثّلي الطلبة في المجالس العلميّة مكسب ناضلت من أجله أجيال من الحركة الطلاّبيّة ودفعت ثمنه سجونا ومنافي ودماء وتحطيما لمستقبل رفاق لنا. فكفانا هراء ومزايدات وإهدارا للمكاسب. الانتخابات حقّنا البديهيّ في كلّ وقت، ومن دون تواريخ مقدّسة فلنمارس حقوقنا التي انتزعناها بالدم. لا تأجيل ولا تدجيل، حقّ الطالب في التمثيل.

صرخت الجموع بصوت واحد هادر: «لا تأجيل ولا تدجيل حقّ الطالب في التمثيل».

كان الزعيم يرفع قبضته محرّكا إيّاها من أسفل إلى أعلى على وقع الشعار الذي صار في كلّ فم.

أوقف الزعيم بإشارة من يده الأصوات الهادرة، بعد أن جال ببصره على الجموع المحتشدة يمينا فيسارا.

حين لم تتبقّ إلّا أصوات قليلة متفرّقة تبلغ مسمعيه قال:

– أمام الجميع، أُشهد جماهيرنا الطلاّبيّة المناضلة عليكم أيّها الرجعيّون المتخاذلون أعداء الثورة...

سمع صوتا من أسفل يسأله من يقصد بكلامه؟ فواصل:

– وأقصد هذه العصابة التي تسمّي نفسها المكتب الفيديرالي للكلّيّة. لا تطلبوا منّي اجتماعا تشاوريّا في المسألة. لا تخونوا الطلبة من وراء ظهورهم. من له موقف آخر فليقله الآن أمام جماهيرنا العظيمة او فليغلق فمه إلى الأبد. أنبّهكم يا طلبتنا المناضلين: احذروا الخونة من داخلكم أمّا أعداؤنا فستتكفّل بهم القوى الثوريّة. وقد قالت جماهيرنا الطلاّبيّة كلمتها الأخيرة في موضوع الاجتماع العامّ ولا سبيل للتراجع.

عادت الأصوات هادرة:

«لا تأجيل ولا تدجيل، حقّ الطالب في التمثيل».

«سحقا سحقا للرجعيّة، يزّينا من النخبويّة».

«يا انتهازي ارتاح ارتاح، فقنا بيك من الصباح».

4

انفضّ الاجتماع أو كاد، تاركا ممثّلي الأطراف السياسيّة المختلفة مندهشين حائرين. تقدّم طالب قصير القامة يصرخ في وجه الزعيم مندّدا بما قاله.

حدّق الوعيم في وجهه مليّا محتقرا إيّاه، لكن الشابّ ظلّ يتشعبط رافعا إصبعه في عيني الزعيم.

استدار كما لو أنّه سيذهب ويتركه يجلجل بكلام غير مفهوم تشتمّ منه رائحة السباب. وبغتة، من دون أن يلتفت إليه، لطمه بظهر يده الضخمة لطمة أردته أرضا بعيدا عنه بثلاثة أو أربعة أمتار. سقط مغشيّا عليه من أثر اللطمة. اتّجه نحوه وضربه بحذائه صارخا:

- حتى الفروخ ولّى عندها رأي... شكون زاد تره؟

أجال بصره في البقيّة الباقية من مختلف الأطراف السياسيّة. طأطأوا رؤوسهم عدا اثنين التحقا بالطالب الصريع يسعفانه برشّ الماء على وجهه ويساعدانه على النهوض.

حصل يومها انطباع لدى من حضر مشهد الخطبة التي قلبت الطاولة على الجميع، ومشهد اللطمة على وجه الفرخ، أنّ الزعيم هو سيّد الكلمات في الكلّيّة، بلسانه الذرب وأفكاره المفاجئة وسيّد اللكمات بخُفّه الكبير وحافره الضخم.

اقترب منه عون من الإدارة ووشوش له.

5

اعتقد المستشار الذي رافق الزعيم متجهين نحو مبنى الإدارة أنّ خبر ضرب الطالب قد وصل إلى الكاتب العام للكلّيّة، ولا شكّ أنّها فرصة للإدارة كي تحيل القائد على مجلس التأديب لطرده. شرع يزوّر كلاما في نفسه غير منتبه لما يقوله المستشار. حزم أمره حين أعلم السكرتيرة بقدومه وأدخلته وحده دون رفيقه إلى المكتب مباشرة.

كان الكاتب العامّ جالسا في مكتبه وأمامه صاحب المشرب يتحدّثان. ما إن رآه حتّى قال له وللكاتب العام:

- أهلا بالزعيم العظيم، تعرف يا سي المنجي، الولد تبارك الله عليه هذا ربحتو الكليّة يفكّرني في الكبارات متاع السياسة اللي توة وزراء، كيما نشوفو عندك يا زعيم...

نهض الكاتب العامّ من كرسيّه الوثير وراء المكتب وهرع لتحيّة الزعيم ومدّ يده محيّيا العيفة في احتفاء بيّن ذهبت معه أوهام مجلس التأديب والضرب.

أجلسه قبالة صاحب المشرب. سأله كيف يريد القهوة. قاطعه صاحب المشرب معتبرا في ابتسامة مصطنعة ومزاح ثقيل أن الزعيم لا يحبّ إلّا قهوة المشرب.

بادره الكاتب العامّ:

- سي العيفة حبّيت نكلّمك أنا بيدي موش الأعوان على بقيّة معلوم التسجيل، 22 دينار وخمسة ميا، أحنا توّة نحضّروا في قائمات الامتحانات وعدم دفعان بقيّة المعلوم يترتّب عليه الحرمان من إجراء امتحانات السداسيّ الأوّل وحتى امتحانات الدورة الأولى في جوان والتدارك زادة.

- توّة نشوف...

- يعيش ولدي ما فماش تشوف وما تشوفشي عندك نهيّرين باش تبعث الماندة باسم القابض وهاي ورقة فيها الخطوات المطلوبة الكلّ

صمت. وقف صاحب المشرب مسلّما ليغادر المكتب. رآه العيفة يغمز بالعين اليسرى للكاتب العامّ. أراد استغلال الفرصة للمغادرة بدوره وذهنه مشغول بتدبير معلوم التسجيل.

لكنّ الكاتب العام استبقاه قائلا:

- اقعد سي العيفة ما ناديتلكش على الفلوس أكهو... مازال عندي ما نقلّك...

نقل إليه شكر معالي رئيس الجامعة له على موقفه في الاجتماع اليوم من مسألة الانتخابات وموعدها الجديد. اعتبر ذلك موقفا مسؤولا يدلّ على نضج وحسّ مرهف بالمصلحة العامّة. وختم كلامه بإعلامه بأنّ رئيس الجامعة يدعوه في أيّ وقت يشاء إلى شرب قهوة معه والدردشة في الشأن الجامعيّ لما فيه مصلحة الطلبة والكلّيّة.

ظلّ الزعيم يجيب ويعلّق بتحريك رأسه فقط. كانت الفكرة التي استقرّت في ذهنه أنّ هذه المكاتب الإداريّة موصولة مباشرة بالداخليّة. كلّ شيء موضوع تجسّس وتسجيل. فوصف النظام بأنّه بوليسيّ ليس من باب المجاز، بل هو تعبير عن جوهر حقيقته القمعيّة. كلّ الحركات والسكنات مراقبة، وكلّ كلام في المكاتب المغلقة مسجّل إلّا كلام الساحات والاجتماعات العامّة يغيب متصاعدا في الفضاء الرحب كما تتلاشى تغاريد العصافير الحرّة الطليقة وزقزقتها.

اقترب الكاتب العامّ من الزعيم متكئا بمنكبيه على الكرسيّ الذي أجلسه فيه. وشوش له:

- ما صاب تترشّح إنت للانتخابات، ما سمعت عليك كان كلام الخير، وتنجّم تدافع بالحقّ على زملاك بكلّ مسؤوليّة

صمت غير منتظر منه ردّا:

– حتّى سي جاء وحدو متاع المشرب يشكر فيك برشة. إنت حرّ، فكّر على روحك في عقلك واحنا كإدارة ما عندناش دخل، محايدين، أما ماذا بينا على ناس بعقولها واللي جاء مبروك ولدي.

6

من الغد، جمع المسؤول عن البروتوكول من الرفاق معلوم التسجيل. وضع في يد الزعيم ثلاثين دينارا.

وصل إلى المشرب كالعادة. كان تقريبا فارغا. اختلى به صاحب المشرب في ركن يتحدّثان. سأله عن أقرب مركز بريد ليدفع الحوّالة البريديّة المطلوبة للتسجيل. ترجّاه صاحب المشرب بألّا يشغل باله بهذه السفاسف التي لا تليق بالزعماء الكبار. نادى أحد العاملين وطلب من القائد أن يسلّمه رقم القابض الخاصّ بالكلّيّة ويكتب له على ورقة كل المعطيات المطلوبة. نفّذ العيفة ما طلبه منه وقدّم مع الورقة التي قطعها من كرّاس ملفوف في جريدة كالعادة مبلغ خمسة وعشرين دينارا. أقسم سي جاء وحدو بأغلظ الأيمان ألّا يدفع ملّيما. أخرج من الصندوق المال وأمر العامل بالعودة بسرعة ومدّ الزعيم بالوصل.

لم يحيّره كرم صاحب المطعم فمزيّته سابقة. لم يكن يعتبر ما يفعله معه إلّا من باب ردّ الجميل. وما لا يعرفه رفاقه أنّه في لحظات خلوتهما كان يروي له النكت الخضراء المضحكة، وإن كان الزعيم لطبع فيه يكتفي بالابتسام. خلق ذلك بينهما مودّة خاصّة واستلطافا كبيرا. صار من حيث لا يشعر يبشّ في وجهه.

اقترب الزعيم من صديقه الودود موشوشا. نظر إليه مصافحا بحرارة وقال:

– الحمد الله عليك يا سيدي كيف تكلّمت، ورحمة أمّي الغالية جيت باش نقلّك، وخيّان نحنا يعجبكشي، راك عزيز وغالي. شوف مع الساعتين بعد ما يفرغ المشرب نهزّك أنا بيدي تبدّل الماء للعصفور.

7

دخل العيفة لأوّل مرّة في حياته المدينة العتيقة. رأى أوّل مرّة قصر الحكومة بالقصبة. سمع بسوق الذهب

وجامع الزيتونة والخلدونيّة والمكتبة الوطنيّة وباب بحر. وها هو يراها عيانا. أوقفه عند بائع المقروض اشترى رطلا منه وقال له:

- كول، مقروض باللوز باهيلك، وإنت ماشي تحارب يقوّيك...

شربا كأسا من الشاي المنعنع في حانوت صغيرة لا يستوعب أكثر من خمسة أشخاص. وجده حلوا أكثر ممّا يجب، فتوقّف بعد الرشفة الأولى. التفت إليه سي جاء وحدو كالمؤنّب:

- اشرب باهيلك، السكر اللي فيه ينشّطك.

عبّه في جرعة واحدة كما لو كان دواء مرّا اعتقادا منه فيما قاله له. ولكنّ ذهنه كان شاردا يحاول أن يتصوّر ما سيأتي.

وصلا إلى باب البحر استدارا على اليسار. دخلا زقاق ضيّقا. كان الباعة منتشرين. دخلا من صاباط على اليسار. تعرّجت الأنهج قليلا. على اليمين قرأ اسم النهج. رحم الله الوليّ الصالح سيدي عبد الله. ربط ذلك بلقبه «العيفة بن عبد الله» كلنا عباد الله وأبناء أوليائه الصالحين كما تقول أمّه.

تذكّر رحلات أمّه لسنين طوال إلى الزاوية القشّاشيّة في القصر. تستعدّ لها، على ما روت له، طيلة الشهر والشهرين تجمع النذور حتّى أنجبته بعد وفاتين وأربع حالات إجهاض. فكان بكرها الذي سمّته العيفة حتى تعافه المنيّة التي أنشبت أظفارها في سابقيه على عادة أهل الريف في تونس العامرة وربّما سمّته العيفة لأنّها حين أخذته بين يديها ساعة نزوله إلى هذه الفانية ونظرت إليه اشمأزّت وكرهت فرحتها بخلاصها، فعافته وتمنّت لو أنّها لم تنجبه.

كانت تقول له:

- يا وليدي، كان موش سيدي القشّاش راك ما جيتش، بعد منام عيني ما تنساش الوعدة.

وها هو يزور جدّه فما الفرق بين القشّاش والقشّ؟ فلعلّهما اسم واحد وزاوية واحدة.

كان ينظر إلى الأجساد العارية ويلمح الابتسامات المغرية بالاختيار منتظرا من سي جاء وحدو أن يصطفي له واحدة. كان مذهولا بما يراه. شعر أنّ الحرارة بدأت تغزو حوضه وبين فخذيه. توتّر توتّرا شديدا. كلّهنّ عنده وجه واحد، فمتى يلتهم الصدور شبه العارية والأفخاذ الممتلئة والزنود المكتنزة ويدخل مجمع اللذّة. لم

يعد يطيق صبرا. يكاد ينفجر. غمرته حالة من الاهتياج والانتصاب قاتلة. الماء بقربه والعطش يقتله. رحماك يا سي جاء وحدو. جرّب أن يحثّه على التوقّف عن البحث والإسراع في الاختيار. قال وجلا:

- اسمعني بكلهم باهين هيّا برك...

- طرف صبر، نعرف وحدة بندقة على حالها، توة تشوف روعة...

- المرّة الجاية، خلينا نختارو توة نريقلو أمورنا فيسع...

- اسمع نختارو وحدة تدخل إنت ومن بعد أنا.

صمت. فقد باءت محاولته التسريع بالاختيار بالفشل. لم يدم البحث عن البندقة طويلا ولكنّ الوقت القصير تطاول عند الزعيم حتّى أظلمت الدنيا في عينيه. وسرعان ما انبلج الصباح حين سمع سي جاء وحدو يساوم البندقة ذات الحسن والدلال. نقدها أجرتيها مسبقا وهمس في أذن الزعيم:

- خالصة ما تزيدها شيء، بعد ما تكمّل توة ندخل أنا.

لم تمض خمس دقائق حتّى خرج الزعيم محمرّ العينين مهموما يخفي غضبه وربّما أشياء أخرى.
وشوش له سي جاء وحدو:

- عجبتك؟

لم يجبه.

- اسمع ستنّاني هوني متّع نظرك بالأخرين وكان تحبّ تعاود قلّي.

حين خرج سي جاء وحدو من الغرفة إلى النهج أخذ يتثبّت يمنة ويسرة. لم يجد الزعيم. ذرع النهج جيئة وذهابا. طرق جميع البيوت والغرف في نهج سيدي عبد اللهّ قشّ. لم يعثر له على أثر. حبّة ملح ذابت في الماء.

8

سيعود حتما إلى الكلّيّة. مسكين كان مكسور الخاطر. قال بينه وبين نفسه لقد قمت بواجبي وهذا العزلوك القعر الجلف ليس ابني حتّى أقلق عليه. ليذهب إلى الجحيم. مجرّد زنيم كبّول.

غاب الزعيم عن الكليّة يومين. لاطفه سي جاء وحدو طيلة أسبوع دون أن يحدّثه في شأن ما وقع يومها. مهّد له وأطال التمهيد إلى أن حكى له كلّ شيء وهدّده بالقتل إن أفشى السرّ. كان متألّما ألما جعله حادّا عنيفا.

كانت العاهرة أيضا قد حكت لسي جاء وحدو ما وقع. وحين جمع الروايتين اكتملت الصورة عنده فدخلت في لائحة نوادره التي كان يعرف كيف يجمعها ويحفظها ويرتّب عرضها لشدّ الأصفياء والجلاّس. فلا شكّ أنّه رواها ولكن خارج الكلّيّة.

حين دخل العيفة عليها جذبها من يديها وألصقها به يريد تقبيلها من فمها فامتنعت. فليس من عادة أمثالها مثل هذه الممهّدات. أفهمته بلطف على قدر الجهد والطاقة أنّه عليها أن تغسل آلته قبل كلّ شيء. أخذت الإناء المملوء ماء دافئا. دعكت قطعة الصابون بين يديها وشرعت تنظّف قضيبه. قذف ماءه قذفة سريعة دون أن يرتخي. مسحت المادّة اللزجة متأفّفة بمنشفة صغيرة.

اتّكأت على الفراش. أخذت علبة الفازلين من طاولة صغيرة ملتصقة بالفراش. فرجت ما بين رجليها. بأصابع يمناها دهنت الفرج. فلم تفطن إلّا للحريف ينشج ثم أجهش بالبكاء ثم انتحب ثمّ أخذ يعول وينوح ثمّ طفق يولول واضعا يديه على رأسه جاثيا على ركبتيه يحرّك جذعه يمنة ويسرة.

وغادر الغرفة.

هام على وجهه في أزقّة المدينة العتيقة بعد أن اعتقد أنّه سيعرف طريق الكلّيّة. أخطأ في السير في طريق نهج جامع الزيتونة فرأى نفسه في سوق لم يرها عند المجيء. ظلّ يمشي هائما عاجزا عن تذكّر مسار العودة.

كان كلّما سأل مارّا في الطريق عن جامع الزيتونة أو المكتبة الوطنيّة أو قصر الحكومة. نظر إليه شزرا محوقلا أو مستغفرا معلّقا:

– آش ها الهموم الجامدة...

– ما لا قعار تملات بيهم البلاد...

– جامع الزيتونة؟ لا ظاهر على صلاتك وعبادتك يا مسّخ...

– برة قيلني يهديك، يزي بلا دروشة...

– والمكتبة الوطنيّة زادة؟ يكبّ سعد العلم وأمّاليه...

– الحكومة؟ علاش تحب يعاودو يطهّروك....

لم يفهم هذا العنف اللفظيّ الذي واجهه الناس به. ولم يكن قادرا على التفكير. يريد طريق الكليّة ولا شيء غير العودة إلى الكليّة.

لم يفطن إلى أنّه نسي سلسلة سرواله مفتوحة، فكان حبله الضخم مرتخيا يتدلدل من الفتحة كعصا الأعمى البيضاء إلى أن نبّهه أحد الشبّان إلى ذلك.

هذا ما روته العاهرة لسي جاء وحدو في الغرفة المغلقة، وما رواه الزعيم، بعد أيّام لصديقه، عن بحثه عن سبيل العودة إلى الكلّيّة. لقد قضّى ساعتين هائما إلى أن وجد نفسه بالصدفة قرب قصر الحكومة فتذكّر بناية الحزب القريبة من الكلّيّة.

من حسن حظّه أنّه وصل إلى الحافلة في اللحظة الأخيرة إذ كادت تنطلق راجعة إلى المبيت. كان رفاقه قد خالوا أن الأمن قبض عليه، وأعدّوا في غيابه ليلة مشؤومة على إدارة المبيت ونهارا أزرق على إدارة الكلّيّة للمطالبة بإطلاق سراح زميلهم. فقد هاج المستشار والمسؤول عن البروتوكول وبقيّة الرفاق وماجوا إذ اعتقدوا أن القائد قُبض عليه بسبب اعتدائه على الرفيق بالأمس إثر الاجتماع العامّ. لذلك حين صعد إلى الحافلة استقبله السائق بالأحضان وانهمرت الدموع من عيون الصبايا فرحا وعانقه رفاقه يسألونه عمّا وقع.

لم يتوقّف السؤال إلّا حين انتصب الزعيم خطيبا في الحافلة:

– شكرا رفاقي على محبّتكم الغامرة، ما تخافوش كنت نطّمن على جماهير شعبنا العظيم في مواقع العمل والنضال، شكرا لكم مرّة أخرى.

9

في موقع العمل والنضال رأى الزعيم، حين فتحت العاهرة رجليها لتدهن بالفازلين فرجها، برهان ربّه.

فقد رأى صورة أمّه وهي تفتح رجليها. كانتا ذكريين بعيدتين. رآها أوّل الأمر صغيرا تستعدّ لحضور حفل زفاف. جمعت مليتها إلى أعلى وعرّت عن فخذيها. كانت الخالة عيشة تنظّف في الحوش عانة أمّه بقطعة من السكّر المذاب. رأى كلّ شيء وظلّ يتثبّت ويحملق شاخصا. ولم تنهره جارتهم في الحوش المجاور فحضر

المشهد كلّه.

وكان يوما عائدا من المدرسة آخر السنة في بداية الصيف. كان يحمل بطاقة الأعداد التي تثبت تفوّقه. عاد إلى البيت راكضا فرحا بشكر المعلّمين له. لكن فرحه سرعان ما انقلب غمّا واكتئابا فقد رأى أباه يعتلي أمّه في الدكّة اليمنى من الحوش. استرق النظر من خلال الفرجات بين الأعواد التي تكوّن ما يشبه الشبّاك. كانت شمس شهر جوان الساطعة تضيء الحوش إضاءة جيّدة رغم غلق الباب.

كان رأساهما موجّهين إلى الحائط ورجلاهما في اتجاه الشبّاك. يستحيل عليه أن يخطئ أو يشكّ. رفع أبوه رجليها فوق كتفيه وأولج آلته فيها وتحرّك حركات سريعة. نعم رأى كلّ شيء.

يومها فرّ في اتجاه الجبل القريب راكضا. ترك محفظته عند باب الحوش ولم يرجع إلّا مع غروب الشمس. لم يسأله أحد أين كان. شعر بخجل قاتل وخزي عميق. لم يستطع أن ينظر إلى عيني أمّه ولا إلى أبيه.

عادت هذه الذكريات كلّها وهو يرى العاهرة تستعدّ للجماع وقد اجتمعت في ذهنه الصور واسما الوليّين الصالحين وطلب أمّه منه ألّا ينسى ما وعدت به سيدي القشّاش. ولكن ها هي وعدته محفوفة بالصور الكريهة البشعة.

هون عليه سي جاء وحدو الأمر واعتبر الحلّ بسيطا: يولج ولا ينظر. وعده بزيارة أخرى للوليّ الصالح وستكون الوعدة موفّقة ناجحة، ولو اقتضى الأمر أن يدخل معه ليساعده حبّا وكرامة.

أهكذا كلّ النساء؟ تساءل الزعيم حين تذكّر سلمى.

10

كان الفوز ساحقا لقائمة الزعيم. افتكّ ثلاثة مقاعد وحصل طالب مستقلّ على مقعد ممثّل طلبة المرحلة الثالثة في المجلس العلميّ.

وزّعت المهامّ بينهم. سيكون الزعيم ممثلاً للأربعة في المجلس يحضر جميع الاجتماعات. أمّا الطالبة التي اختارها الزعيم في قائمة النضال الطلاّبي الراديكالي فهي صديقة المستشار الشخصيّة. عيّنت بطلب من الزعيم ممثّلة للطلبة في مجلس التأديب. كانت سليطة اللسان واثقة من نفسها وقحة تعادي ولا تجامل.

في أوّل اجتماع للمجلس لم يتعرّف من بين الأساتذة الأعضاء إلّا على أستاذ التاريخ الاجتماعيّ صاحب درس الثورات التي تبيّن أنها انتفاضات. رحّب به العميد وكان الكاتب العامّ مقرّر الاجتماع يبتسم له في تودّد.

بعد الترحيب تلا العميد جدول الأعمال وأعْلم الزعيم بأنّه مطالب بالمغادرة عند الوصول إلى النقاط التي تخصّ هيئة التدريس وشؤون الأساتذة فهي تتّصل بترقيات بعضهم وترسيم بعضهم الآخر. ثمّ أحال الكلمة إلى ممثّل الطلبة إن كان يودّ في هذا الاجتماع الأوّل أن يقول شيئا.

لم يكن مستعدّا للكلام. لكنه ارتجل شكرا للإدارة على حيادها وحرفيّتها في الانتخابات. وحين نظر إلى الكاتب العامّ وجده يبتسم مخفيا ابتسامته. فكلاهما يعرف أن ممثّلة المرحلة الأولى من قائمة الزعيم ما كان لها أن تربح الانتخابات لو لم يزيّف الكاتب العامّ النتيجة. فقد جمعت عددا من الأصوات يساوي ما جمعه طالب آخر. لكن عند التساوي يربح الأكبر سنّا فاعتبر الكاتب العامّ أنّ زميلة الزعيم مولودة قبل شهرين من منافسها القومي الوحدويّ رغم شهرته وتمثيله للطلبة في السنة المنقضية.

لم يكن في بداية الأمر خطأ مقصودا على الأرجح. فقد سجّل الكاتب العامّ البيانات خاطئة منذ البداية رغم اعتماده على بطاقات التعريف. وحين فطن المستشار إلى ذلك شكر الكاتب العامّ على مساندته لقائمتهم فاستنكر ذلك، ولكن الطلقة إذا خرجت من المسدّس لا تعود. أو هكذا أراد لها الكاتب العامّ.

وتوقّف الزعيم بعد ذلك عند القانون الذي يمنع ممثّل الطلبة من حضور المداولات التي تخصّ الأساتذة. قال مخاطبا المجلس:

– اسمحوا لي أن أحتجّ على عدم تشريك الطلبة في ما يخصّ شؤون الأساتذة.

قاطعه أستاذ العربيّة المعروف بأنّه يترأّس في الوقت نفسه الكتابة العامّة للنقابة الأساسيّة للأساتذة:

– سامحني القانون واضح....

ثمّ التفت إلى العميد:

– هذاكة آش ما زال شؤون الأساتذة يتدخّلو فيها الطلبة!

هدّأه العميد وأعاد الكلمة إلى ممثّل الطلبة. فقال:

- أوّلا أنا لم أقاطع أحدا وأطلب الآن اعتذارا رسميّا يدوّن في محضر الجلسة وألّا غادرت قاعة الاجتماع وعدت إلى القواعد الطلاّبيّة لاستشارتها في كيفيّة الردّ على هذه الإهانة.

هاج القوم وعلا اللغط بين الأساتذة يحتجّون على هذه اللهجة الجديدة التي لم يألفوها. نظر إليهم الزعيم. حين أسكتهم العميد بالطرق على الطاولة جمع بهدوء أوراقه واتّجه نحو الباب.

لحق به الكاتب العامّ وأستاذ التاريخ الاجتماعيّ خاطباه في تداخل صوتيّ أزعجه:

- احسبوا بوك، راهو نقابيّ كيفك إنت تدافع على الطلبة وهو على الأساتذة...

- امسحها فيّ المرّة هذي، زميلنا إنسان طيّب وما يقصدش...

- آش باش يقولوا علينا من المرسى بدينا نقدّفوا، أحنا الساعة فرحانين بممثّل للطلبة حكيم كيفك...

- خوذ بخاطري المرّة هذي وما عادش تتكرّر...

عاد إلى القاعة مكرها. جلس فأرجع إليه العميد الكلمة.

- لا اطلب إلّا احترام رأي الطلبة ووجهة نظرهم. بالنسبة إلى موضوع أساتذتنا الأجلاّء نحن ما يهمناش الارتقاء المهني والترسيم والأمور هذي. ندافع عن حقّ الجميع في الكرامة والعمل أما بصراحة إذا نحبّو نقدّموا بجامعتنا لازمنا نأخذ بعين الاعتبار تقييم الطلبة للأساتذة. موش صوابع يديك الكلّ قد قد، مع تقديرنا لأساتذتنا الأجلاّء.

قاطعه المسؤول النقابيّ:

- آش تقصد؟

لم يحتجّ هذه المرّة فقد رأى أستاذ التاريخ الاجتماعيّ يقرّعه قائلا:

- وفيتش توّة من المقاطعة؟ خليه يعبّر على رأيو. أعضاء المجلس الكلّ متساويين وكيف تحب تتكلّم تطلب الإذن من السيّد العميد رئيس الجلسة، ما كانش أنا بيدي نغادر الاجتماع.

واصل الزعيم:

- نعطيكم أمثلة، فمّة أساتذة يتغيّبون ولا يعوّضون، وآخرون لا يدرّسون بل يرسلون النكت والحكايات الفارغة طيلة الدرس، وأساتذة لم يغيّروا دروسهم منذ عهد نوح... فالطلبة ليسوا أغبياء ويميّزون بين أستاذنا العالم المتواضع سي الشريف (وأشار إلى أستاذ التاريخ الاجتماعيّ) وغيره ممّن لن أذكر من باب الاحترام. تقييم الطلبة معمول به في كلّ الجامعات الراقية باش نولّيو خير من أكسفورد وكامبريدج ياخي؟

استحسن جلّ الحضور تدخّل الزعيم إلّا المسؤول النقابي الذي طفق يتحدّث عن وضعيّة الأساتذة وتدهور قدرتهم الشرائيّة وتراجع مكانتهم الاعتباريّة والقرارات الفوقيّة لسلطة الإشراف وظروف العمل السيّئة.

كان الزعيم ينظر إليه في سخرية بعد أن تأكّد أن أغلبيّة المجلس رأت في كلامه وجاهة. رفع يده طالبا الكلمة مرّة أخرى:

- كلّنا نعاني من ظروف الدراسة والفقر والمقدرة الشرائيّة والقرارات الفوقيّة، بل يعاني منها الطلبة أكثر من الأساتذة. لا أطلب شيئا غير تسجيل موقفي هذا في محضر الجلسة لأنّ الكلّيّة بإدارتها وأساتذتها وأعوانها في خدمة الطلبة، هم حرفاؤكم الذين تبيعونهم خدمات دروسكم وتمنحونهم الشهادات. سأغادر حين تصلون إلى نقطة الترسيم ولكنّ لا تنسوا حقوق الطلبة وواجب تقييمهم للأساتذة من أجل تحسين مردود المؤسّسة والمنظومة الجامعيّة ككلّ. فهذه التقييمات تبقى عندكم ولا نريد الاطّلاع عليها حفظا لكرامة أساتذتنا الأجلاّء.

شكر العميد الطالب على وعيه بالمشكلات البيداغوجيّة وحرصه على الارتقاء بالمؤسّسة والمستوى الراقي المهذّب في النقاش والتعبير عن الرأي. وختم كلامه:

- أنا سعيد بأن تكون معنا في هذا المجلس... تشرّفه فعلا.

صمت الزعيم. شعر برضا نفسيّ أشبع غروره وأكّد زعامته وفكره الثوريّ الملهم في أوّل اختبار مع أساتذته الذين كان يحتقرهم ويعتبر جلّهم من سقط المتاع العلميّ.

تخيّل نفسه يصعد فوق طاولة الاجتماع الكبيرة في قاعة المجلس العلميّ يرقص عاريا مع سلمى ويغنّي. يوجّه نحوهم آلته ويبول عليهم فردا فردا إلّا أستاذ الثورات التي هي انتفاضات، ثمّ يقعي على صلعة

العميد يتغوّط فوقها.

كان يقول في نفسه:

– أولاد القحبة ما أوسخكم وتكابرون!

11

وصل الخبر إلى جميع الطلبة حتى كاد مبدأ تقييم الطلبة للأساتذة يصبح مطلبا من مطالب الحركة الطلاّبيّة. صنع المسؤول عن البروتوكول، بعد أن صدر محضر الجلسة وتأكّد الشاكّون ممّا قاله الزعيم، شعارا جديدا:

– التقييم... التقييم، للطالب وللأستاذ.

أدرك الطلبة حكمة الزعيم التي لا ضفاف لها. فهموا أنّهم أحسنوا الاختيار. طلبت نقابة الأساتذة لقاء مع الزعيم في مقرّ مكتبها بالكلّيّة. رفض احتجاجا على إهانة الكاتب العام للنقابة الأساسيّة له في الاجتماع واستهانته بكلامه.

بدأ الخبر يسري في المعاهد والكلّيّات القريبة من محيط الكلّيّة. أرسل له الكاتب العام للاتّحاد الجهوي للشغل يطلب لقاءه. وصلته الدعوة من سي جاء وحدو. فقد عرف النقابيّون أنّه صديقه. تشاور مع رفاقه. اعتبر النقابات والاتحاد متذيّلين للسلطة. سماها نقابات صفراء ولا ثورة ألّا بالنقابات الحمراء.

وأخيرا استقرّ الرأي على إجراء اللقاء. شجعته سلمى بالخصوص على ذلك لأنّ أباها نقابيّ قديم في قطاع الفسفاط. وأنّى للزعيم أن يرفض رأيا لسلمى؟

في الاجتماع عبّر الكاتب العام للاتحاد الجهويّ عن رغبته في التعرّف إليه باعتباره مناضلا نقابيّا سيكون له شأن بعد التخرّج. بلّغه تحيّات الأخ الأمين العام للاتّحاد والمكتب التنفيذي كلّه. بدت زيارة مجاملة كان فيها الزعيم مهذّبا جدّا.

دارت جلّ الأسئلة عن أمور فرديّة تتّصل بالجهة التي ينتمي إليها الزعيم والعائلة ومهنة الأب وتاريخه النضاليّ. كانت إجاباته مبهمة، وحتّى القهوة التي قدّمها له لم تكن لذيذة فلم يشربها.

دام اللقاء المملّ زهاء نصف ساعة. تحدّث فيها الكاتب العام عن الإضرابات المتوقّعة قريبا والمفاوضات

العسيرة مع أرباب المصانع والطرد التعسّفي وبعض الاعتصامات وغلق المعامل ومشاكل نقابيّة كثيرة لا علم للزعيم بها.

كانت البلاد تغلي كما فهم من حديث الأخ الكاتب العام. لم يفهم سبب الدعوة المباشر إلّا حين وقف فجأة ليسلّم عليه إيذانا بأنّ اللقاء انتهى بعد أن دخل الشاوش وأعلمه بأنّ وفدا من معمل النسيج في منطقة قريبة وصل بحسب الموعد المضروب لهم.

أمام الباب قال له بهدوء وصرامة:

– يعيّش ولدي حكاية تقييم الأساتذة باش تخلق مشكلة في القطاع في البلاد الكلّ، ما عندناش وقت في الاتحاد للحكايات الفارغة هذي. هاني قتلك الوضع كيفاش ما تزيدش علينا. وهاني أعلمتك بأخويّة وبقدر كبير ودليلك ملك. وفي جميع الحالات تحمّل مسؤوليتك.

12

لم يرو الزعيم لرفاقه شيئا. بلع السكّين تقطر دما. وظلّ بعد هذا اللقاء شاردا يفكّر في المسألة.

جمع رفاقه من خطّ النضال الطلاّبي الراديكالي في المبيت. طلب منهم التفكير في هجمة ماحقة للأطراف السياسيّة الأخرى والاستعداد للحرب حتّى إجلاء آخر العملاء من ساحة الكلّيّة.

قدّم تحليلا مفصّلا عن خياناتهم للحركة الثوريّة. اقترح الاتصال بأشلاء هذه التيارات التي انهزمت في معركة الانتخابات ومطالبتها بالصمت أو تحمّل مسؤوليّتها. لا بدّ لها من إعلان الولاء للقيادة في الكلّيّة وللزعيم شخصيّا مع التزام مكتوب. ألحّ على أن تكون شروط الولاء مهينة لهم من بينها حمايتهم بمقابل مادّي كلّ شهر يقتطع من منحهم الجامعيّة لعدم المساس بهم والسكوت عن تاريخهم الأسود في الخيانة. إذ نطق يومها الزعيم بإحدى حكمه البديعة وجوامع كلمه الخالدة:

– لا يلتقي في الكليّة تياران متناقضان ولا يجتمع فصيلان سياسيّان. إمّا الثورة وإمّا الرجعيّة.

ألحّ على ضرورة المرحليّة في القيام بهذه المهمّة الدقيقة. طلب في الأثناء دون تفصيل ألّا يتحدّث أحد بعد اليوم عن مسألة تقييم الأساتذة. ميّز لهم بين التناقضات الرئيسيّة والتناقضات الثانويّة، وحدّد مجال الصراع

المقبل: تطهير الجامعة من القوى الرجعيّة داخل الحركة الطلاّبيّة المجيدة. لذلك على الحركة الطلاّبيّة الثوريّة المناضلة أن تجلب الأساتذة إلى صفّها في هذا الصراع المصيريّ.

من الغد تفاجأ الطلبة بوجود شاحنات الأمن وقوّات التدخّل قريبا من الكلّيّة. كان حضورهم مكثّفا حتّى أن الرفاق ظلّوا في حيرة من أمرهم. همس الزعيم لمستشاره قائلا:

- تتأجّل الخطّة لغدوة...

- علاش؟

- ما شفتش البوليسيّة؟

- شفتهم. أما شنيّة المشكلة؟

- فمّة قوّادة بيناتنا هوما اللي وصلو للأمن وجاو مستعدّين بلغهم اللّي خطّة العنف الثوري باش تبدأ ليوم.

مرّة أخرى ينبهر المستشار بذكاء الزعيم وحكمته البالغة. فملاحظاته صائبة في الصميم وحججه مقنعة بل دامغة.

13

قام مجموعة من الرفاق بزيارة لمقرّ المكتب الفيديرالي بالكلّيّة. وجدوا أحد الأعضاء فيه. كانوا يتداولون حول البقاء داخل المقرّ لمتابعة الوضع العامّ في الكلّيّة وتلقّي الشكاوى من الطلبة للتدخّل في الإبّان.

طلب الرفاق من العضو أن يغادر المكتب ويسلّمهم المفتاح لأنّه سيصبح مقرّ الزعيم وممثّلي الطلبة بالمجلس العلميّ والخطّ الطلاّبي الراديكالي. لم يناقش التعليمات. نفّذ صاغرا.

حين وصل بقيّة أعضاء المكتب تباعا أفهموهم المطلوب فلم يجدوا منهم معارضة. تمّت المرحلة الأولى من الخطّة بسلام.

في نصف يوم، كلّف الكاتب العام للكلّيّة أحد العملة بدهن المقرّ. أحضر إلى المكتب أثاثا جديدا ولوازم

إداريّة. وبعد يوم وضعت المعلّقة الجديدة على باب المكتب: «مقرّ ممثّلي الطلبة بالمجلس العلميّ».

كان التعامل بين الزعيم والكاتب العامّ يسيرا. فمطالب الزعيم لا تردّ. بل صار الكاتب العام خلال جولته اليوميّة في أرجاء الكلّيّة يمرّ على الزعيم يسأله إن كان يحتاج شيئا.

تصل القهوة والشطائر وعلبة سجائر الكريستال إلى المقرّ من المشرب، على امتداد اليوم، بحسب الحاجة التي يحدّدها الزعيم شفويّا. أصبحت العادة الجديدة هي اللقاء المغلق بين الزعيم وصاحب المشرب سي جاء وحدو. يتجاذبان أطراف الحديث ويمزحان ويدرسان الوضع في الكلّيّة. لم تبلغه الإشاعات التي كانت تسري في الكلّيّة: «صاحب المشرب صبّاب». ولم يجرؤ رفاق الزعيم بعد أن رأوا الانسجام بينهما أن يعلموه بذلك.

من معارك الزعيم
معركة الكرامة

1

استتبّت الأمور للزعيم قائدا أوحد بعد إجلاء القوى الرجعيّة بسلاسة لم يتوقّعها أحد. أرجع الرفاق ذلك إلى كاريزما الزعيم وحنكته وعجز الأطراف السياسيّة الأخرى عن مصارعته فكريّا، وحتّى بدنيّا، إثر اللطمة التي سدّدها إلى الطالب في اجتماع سابق.

الأمر الوحيد الذي بدأ يزعج الرفاق هو التسميات المحقّرة للزعيم التي ظهرت هنا وهناك على مرّ الأيّام: «العضروط»، «زرافة الثورة»، «وجه اللّوح»، «زعيم ثورة بودورو»... إلخ. لم يكن من الممكن مقاومة مثل هذه الصفات والتسميات التي يتهامس بها أعداء الثورة.

سرعان ما تحوّلت هذه التسميات إلى إشاعات مغرضة وحكايات مضحكة وأكاذيب ملفّقة بطلها الزعيم.

صاروا يشيعون أن الزعيم يقدّم لسي جاء وحدو تقريرا يوميّا عن الوضع السياسيّ في الكلّيّة، يرفعه صاحب المشرب إلى الداخليّة. وفي الآن نفسه ينظّم لقاء مع الكاتب العام للمكتب النقابي للأساتذة الذي صار صديقه يعلمه فيه بما يحتاج الاتحاد إلى أن يعرفه عن وضع الكلّية.

وسيتدلّون على ذلك بأنّ الزعيم مذ أن صار زعيما أوحد لم يقم بأيّ اجتماع عامّ بالطلبة، وهدأت الأوضاع في الكلّيّة ولم تعد هناك مطالب أو تحرّكات.

لكنّ الزعيم فاجأهم يوما بالدعوة إلى إضراب في الكلّيّة تنديدا بالحصار الجائر على العراق.

2

كان الزعيم يعتبر نظام البعث في العراق فاشيّا، ويعتبر صدّام حسين دكتاتورا غير عادل وصواريخه التي وجّهها إلى إسرائيل مجرّد مفرقعات أطفال، لكنّه يصلح لمواجهة الإمبرياليّة الأمريكيّة واستفزازها لإيقاظ الوعي الثوريّ للعرب.

وكانت للزعيم رؤية مميّزة إلى العرب ودورهم الحضاريّ. فرغم إشارته إلى أصوله البربريّة التي تكشف عنها ملامحه وتاريخ المنطقة التي تقع فيها دشرته، واعتباره دخول الفاتحين المسلمين إلى تونس استعمارا عربيّا، فإنّه يعتبر العرب قوّة وحشيّة تمدّ أرض العروبة بقوى الإنتاج اللاّزم للتقدّم الفلاحيّ والصناعيّ فتتغذّى بهم الحضارة. ويستشهد دائما بابن خلدون الذي يقول إذا عرّبت خرّبت، وبما أتاه الهلاليّون من تدمير للبلاد بعد غزوتهم. ولم يكن صدّام حسين إلّا صورة من هذه الوحشيّة الحضاريّة كما يسمّيها. وقد مجّد إضافة صدّام شعار «الله أكبر» إلى علم العراق المناضل ضدّ الإمبرياليّة، لأنّ تعظيم الله يحرّر الإنسان من جبروت الطغاة والفراعنة في كلّ عصر. وحين يذكّره أحد رفاقه بقتل نيتشة للخالق، كان يجيب بأنّه لا تناقض بين الفكرتين. فموت إله السماء النيتشويّ هو جزء من نقد السماء ليتنزّل الله في الإنسانيّ فيبدأ نقد الطغيان في الأرض.

وفي جميع الحالات سيكون الإضراب دفاعا عن العراقيّين لا عن الدكتاتور.

حين وصل الزعيم ورفاقه طلب منهم سدّ المنافذ المؤدّية إلى قاعات الدرس ومنع الطلبة من دخولها. نشروا على حيطان الكلّيّة معلّقات كثيرة تدعو إلى الإضراب: «ضدّ الحصار على العراق الباسل»، «إضراب عامّ دفاعا عن العراق»، «إضراب: سحقا سحقا للرجعيّة، عملاء للإمبرياليّة هزوا يديكم ع القضيّة»، «صامدين... صامدين من العراق لفلسطين»، «شعب عربيّ واحد وطن عربيّ واحد»، «فلسطين عربيّة هزّوا يديكم ع القضيّة».

ما إن حانت الساعة التاسعة والنصف وامتلأت الكليّة بالطلبة، حتّى وقف الزعيم خطيبا على طاولة الخطابة في الساحة قرب المشرب. كان خطابه تحليلا لقهر الإمبرياليّة الأمريكيّة للشعوب العربيّة وحمايتها للكيان الصهيوني المصطنع المغروس في قلب الأمّة العربيّة. ولن يردّ العدوان إلّا تحالف البروليتاريا والفلاّحين وقيام الثورة الراديكاليّة ضدّ المحتلّ والرجعيّة.

لكنّ هذا الإضراب وإن لم يقطع الألسنة التي تتّهم الزعيم بالعمالة للنظام فقد خفّف من حدّة هذه الاتهامات.

3

صارت الحياة في المبيت وفي الكلّيّة مملّة للمستشار وللمسؤول عن البروتوكول.

شعرا أن الزعيم لم يعد في حاجة إليهما. فقد كثر الأنصار من حوله وصار كلّ واحد يتقرّب إليه. لم يعد ذاك الفتى الغرّ الذي يوجّهانه لضرب التيّار السياسيّ الذي أطردهما من صفوفه.

لقد حقّقا غايتهما: الثأر من رفاق الماضي والتنكيل بهم في الانتخابات وتمثيل الطلبة. بدأت اللعبة على سبيل المزاح بترويض هذا المجنون وإيهامه بأنّه الزعيم الموعود وها هي تنتهي بتصديقه للكذبة.

4

لم يكد يستقرّ رأيا الرفيقين على هذا الاستنتاج حتّى فاجأهما الزعيم من حيث لا يحتسبان.

لم يتبقّ على عطلة الشتاء إلّا أسبوع أو عشرة أيّام. كانت الكلّيّة تشهد حركة حثيثة لنسخ الدروس لمن فاتته ولم يحضر. فامتحانات السداسيّ الأوّل تبدأ مباشرة بعد العطلة حسب الجدول الذي علّقته الإدارة.

وقف الزعيم يوما في منتصف النهار والنصف خطيبا قرب المشرب. صفّق بيديه الطويلتين وكان مصحوبا ببعض الطلبة القاعديّين. لم يستشر أحدا، ممّا فاجأ الرفيقين حالما فرغا من الدرس واتّجها كعادتهما صوب مقرّ المكتب الفيديرالي الذي احتلّه الزعيم.

سارعا بالإنصات إلى الزعيم وهو يشرح الأمر الخطير الذي جدّ في الكليّة وتطلّب عقد اجتماع عاجل. كان الشعار الذي بدأ به الزعيم خطابه لتحميس الطلبة وجمع أكبر عدد منهم هو «الترسيم استحقاق، الامتحان استحقاق». شفعه بشعار ثان: «يا إدارة الفشل، الطلاّب هوما الكلّ» و«يا إدارة الإخفاق، الترسيم استحقاق».

لم يفهما دواعي رفع هذه الشعارات إلى أن شرع الخطيب المصقع المفوّه يشرح الوضع. كان عدد من الطلبة

لم يدفعوا القسط الثاني من معلوم الترسيم رغم تنبيه الإدارة عليهم، وقليل منهم لم يدفع لا القسط الأوّل ولا الثاني.

حين ذهبوا إلى الإدارة أعلمتهم بأنّهم لن يجروا الامتحانات لأنّ الترسيم فيها لا يكون إلّا بعد دفع الأقساط المطلوبة. تمسّك الكاتب العامّ باحترام الآجال وأعلم المسؤول عن شؤون الطلبة كلّ من تظلّم لديه بأنّهم لن يجروا الامتحانات إذ القائمات جاهزة. انغلقت عليهم الدائرة وستذهب سنتهم الجامعيّة سبهللا. كان إداريّا صارما متجهّما يتمسّك بالتفاصيل ويخرج حجّة القانون وتطبيقه الحرفيّ دائما.

5

حين اتّصل الرفاق ممثّلو الطلبة بالكاتب العامّ أعاد على مسامعهم ما قاله المسؤول الإداريّ وزاد في الطنبور نغمة:

– يزيو من الفوضى، ثمّة مواعيد واضحة معلّقة منذ بداية السنة والإدارة ماهيش على ذمّتكم تتجبّدوا علينا كاينكم عاملين مزيّة.

نقل الرفاق إلى الزعيم ما قاله لهم المسؤول الأوّل على الإدارة. طلب منهم تقريرا كتابيّا فرديّا يضمّن فيه كلّ واحد منهم ما سمعه بدقّة.

خلال الاجتماع قرّر الزعيم أن يخوض الطلبة معركة الكرامة: كرامة الطلبة وكرامة ممثّليهم المنتخبين شعبيّا لتبليغ أصواتهم إلى الإدارة والمجلس العلميّ. ومعركة الكرامة تقتضي الاعتصام حالّا في الإدارة في انتظار اتخاذ خطوات تصعيديّة أخرى بحسب تطوّر الوضع.

6

اتّجهت جموع الطلبة إلى الإدارة مخترقة الساحة رافعة النشيد الرسميّ والقبضات. ارتجلت كتابة الشعارات على جدران بهو الإدارة. كان العميد غائبا.

خرج الكاتب العامّ يستفسر عن أسباب التظاهر في الإدارة. أعلمه الرفاق أنّهم في اعتصام وليسوا في

مظاهرة بسبب تعنّت الإدارة في تسجيل الطلبة. فهم المسألة.

وقف الزعيم مرّة أخرى خطيبا وهو يتحاشى النظر إلى الكاتب العامّ وبقيّة المسؤولين الذين خرجوا ينصتون إلى ما يقول في خطبته. امتلأ البهو بالطلبة ولم يعد بإمكان الموظّفين المرور في الأروقة. كانت الكلّيّة كلّها تقريبا في بهو الإدارة، واحتلّ الطلبة الأروقة جميعا رافعين الهتافات المطالبة بحقّ الطلبة في الترسيم وإجراء الامتحانات.

ناداه الكاتب العامّ حين فرغ من خطبته طالبا منه الالتحاق بالمكتب فأجابه:

– ما فماش مفاوضات لفكّ الاعتصام قبل التعهّد بتسجيل الزملاء...

وصرخ بشعار «يا إدارة الإخفاق، التسجيل استحقاق»، فتبعه الطلبة في صياح مصمّ. تركهم الكاتب العامّ والتحق بمكتبه.

7

لم تمرّ ساعة حتّى رأى الطلبةُ العميدَ يجتاز باب الإدارة متّجها إلى مكتبه. كان يتعثّر بحثا عن مكان يمرّ منه. حين رآه الزعيم صرخ في وجه الطلبة:

– وسعوا غادي خلّي السيّد العميد يتعدّى...

شكره بتحيّة من رأسه وطلب منه الالتحاق به بحركة من يده. لم يسايره الزعيم. بحث عن ممثّلي الطلبة الآخرين. كانوا ثلاثة باستثناء ممثّل المرحلة الثالثة فلم يكن يأتي إلى الكليّة إلّا لماما. انزووا في ركن يتهامسون ويوشوشون ثمّ اتّجهوا صوب مكتب العميد. كان الكاتب العامّ قد سبقهم إليه منذ دقائق.

8

كانت المفاوضات مع العميد عسيرة رغم تفهّمه للمطلب. لكنّ الزعيم أبلى البلاء الحسن في الإقناع. كانت أصوات حناجر الطلبة وهم ينشدون النشيد الرسميّ ويرفعون شعاراتهم تصلهم داخل المكتب هادرة جيّاشة عالية، فيرفع الزعيم صوته أكثر ليبلّغ أفكاره وإن اعتقد العميد أنّه يهدّد.

تمسّك الكاتب العام بتطبيق القانون فردّ عليه الزعيم بأنّ مستقبل الطالب أهمّ من المنشور الداخليّ فليس في القانون ما يبيح له حرمان طالب من الامتحان. سجّل العميد موافقته على ما سمع من ممثّل الطلبة.

اعتبر الكاتب العامّ أنّ السماح لهؤلاء الطلبة بالتسجيل يعني تركيز الفوضى وعدم احترام الآجال. ردّ عليه الزعيم بأنّ الوضعيّات الاجتماعيّة للطلبة صعبة وتوفير الأموال لدفع القسط الثاني ليس بالأمر السهل فدينار واحد مبلغ مكلف للطالب.

ابتسم الكاتب العامّ معلّقا ومعرّضا به:

- إنت هاك دفعت دوب ما كلمتك ما لا إنت غنيّ؟

- انا هوني مانيش نحكي على روحي، واجبي ندافع على حقوق الطلبة.

توقّف الكاتب العامّ عند نقطة أساسيّة بالنسبة إليه تمنع تسجيل الطلبة في الامتحانات. فقد بدأ العمل في تلك السنة بالمنظومة الإعلاميّة في التسجيل، والحواسيب حين تغلق تسجّل التاريخ ولا يمكن العودة إلى الوراء.

ردّ عليه الزعيم ببساطة أنّ الإنسان هو من صنع الحاسوب وليس مجبرا على أن يكون عبدا له. ثمّ إذا أغلق هذا الحاسوب في تاريخه فلتضف الإدارة أسماء الطلبة الملتحقين بخطّ اليد فالمهمّ إجراء الامتحانات وعلى مهندس الإعلاميّة أن يجد الحيلة التقنيّة وعلّق ساخرا:

- سي المنجي، ما يلزمهاش برشة ذكاء، أما شويّة تفهّم وحرص على مصلحة الطالب.

ختم العميد الجلسة بوعد بمزيد النظر في المسألة مع الإدارة للوصول إلى حلّ، ودعا الزعيم إلى فضّ الاعتصام. رفض الزعيم مقترح العميد وقبل وعده. قال له:

- سيّد العميد في عقلك ماناش مزروبين رغم تهديد مصالح الزملاء، أمّا الاعتصام باش يتواصل إلى تحقيق المطلب الشرعيّ متاعنا... الليلة بايتين هوني وغدوة نصف النهار على أقصى تقدير نحبّو الجواب ما كانش...

- ما كانش شنوّة اللي يصير؟ تهدّد فيّ؟

- لا سيّد العميد ما كانش نمشيو لرئيس الجامعة وكان لزم للوزير، من غير ما نفكّوا الاعتصام...

نعدّيو العطلة هوني كان لزم... أما ما تنساش اللي كان ما يتسجلوش زملانا راهو ما فماش امتحانات...

– ماعادش تفاوض هذا، ولّي اسمو تهديد بإفشال الامتحانات، كلّ واحد يتحمّل مسؤوليتو...

قالها غاضبا وكان الكاتب العام يوشوش له في أذنه.

كان الزعيم قد سمع بالخلاف بين العميد ورئيس الجامعة وتوتّر العلاقة بينهما، لذلك هدّد بنقل القضيّة إلى الرئيس.

اتّجهت المجموعة إلى باب المكتب لتغادر فسمعت العميد يدعو الزعيم.

– غدوة العشرة متاع الصباح عندنا اجتماع طارئ للمجلس العلميّ حول الموضوع هذا، وتوة نلقاو حلّ إن شاء الله...

9

كان هذا آخر انتصار مشرّف للزعيم في الكلّيّة. فقد أبلى في معركة الكرامة البلاء الحسن مثلما فعل في معركة الجلاء.

انتهى اجتماع المجلس العلميّ بتصويت أغلبيّة أعضائه على إعادة فتح باب دفع معاليم التسجيل للطلبة الذين تخلّفوا، لكن لمدّة ثلاثة أيّام لا غير. أراد الكاتب العامّ أمام المجلس أن يكون ذلك ليوم واحد بيد أنّ الزعيم ألحّ أن يكون أسبوعا كاملا، أي آخر يوم في الدراسة قبل العطلة.

طلب الكاتب العام من الزعيم قائمة في الطلبة الذين تخلّفوا حتّى يتمّ تنظيم العمليّة. أحرجه بطلبه لأنّه لم يكن يملك مثل هذه القائمة. أنجده أستاذ التاريخ الاجتماعيّ بعد خطبة طويلة مؤثّرة عن ضرورة مراعاة وضعيّات الطلبة الاجتماعيّة من الأرياف والمهمّشين والحاجة إلى الإحاطة بهم مادّيا ومعنويّا ليكون التعليم الجامعيّ مصعدا اجتماعيّا حقيقيّا لهم. ثمّ التفت إلى الكاتب العام قائلا:

– هذا تعجيز أن تطلب من ممثّل الطلبة قائمة في الطلبة المتخلّفين عن التسجيل؟ ياخي تسخايب عندو إدارة؟ وسيادتك فاش تعمل؟ سكرتيرة ورئيس مصلحة وموظّفين وخليّة إعلاميّة

وتسجيل ومصلحة امتحانات؟ هيّا سيدي أعطينا إنت عدد المتخلّفين عن التسجيل...

نظر الكاتب العامّ إلى العميد مستفسرا، أو كالمحتجّ على الهجوم الكاسح عليه من الأستاذ الشريف. أشار عليه العميد بأن ينير المجلس بالإحصاءات إن كانت متوفّرة لديه. تلعثم ووكوك ثمّ تأتأ وهو يخرج أوراقا إداريّة وقائمات قلبها باحثا فيها في ما بدا للحاضرين عن أرقام بعينها ثم نطق:

- يوجد نوعان من المتخلّفين: طلبة دفعوا القسط الأوّل فقط وعددهم عشرة وطلبة لم يدفعوا أيّ قسط فهم غير مسجّلين وأكثرهم جدد في السنة الأولى وعددهم حوالي خمسين.

وقف الأستاذ عضو المجلس كاتب عام النقابة الأساسيّة صارخا في وجه الكاتب العامّ:

- توة كلام بربّي هذا؟ ساعتين تشيحولنا في ريقنا وتعطلوا فينا على خدمتنا ومن بعد عيطة وشهود على ذبيحة قنفود؟ عشرة طلبة الكلّ في الكلّ كان لميناهم فلوس وسجلناهم توّة رانا ربحنا جهدنا ووقتنا وأعصابنا... ربّي يهديك سي المنجي... بالحق ربي يهديك وإنت تحكي على الانضباط والفوضى وهيبة الإدارة واحترام الآجال تقولش عليك جاي من ألمانيا ولاّ اليابان... تي فكّ على قتلي بالله.

10

حين انتهى اجتماع المجلس العلميّ وغادر الأساتذة المبنى كان الطلبة جالسين أرضا تاركين مسربا للدخول والخروج. كان الزعيم آخر المغادرين لقاعة الاجتماع. ما إن رآه الطلبة حتى تحلّقوا حوله متلهّفين لمعرفة نتيجة الاجتماع.

صعد على درج صغير. أجال نظره كالعادة في الوجوه يمينا فيسارا يتفرّس فيها. كان متجهّما كما لو أنّه يحمل خبرا مستكرها. ثمّ قال:

- جماهيرنا الطلاّبيّة المناضلة، تحيّة ثوريّة، لقد خضنا منذ أمس معركة الكرامة وكنّا على استعداد للاعتصام حتى آخر رمق دفاعا عن الطلبة، لكن يؤسفني أن أقول لكم: فكّوا الاعتصام، أطلب منكم فكّ الاعتصام لأنّنا لم نركع للإدارة... لأنّنا انتصرنا....

هاجت الجموع بالشعارات، ورفع الزعيم على الأعناق حتّى أن رأسه اصطدم بباب الإدارة وهم يحملونه إلى الخارج وكاد يغمى عليه من وقع الارتطام إلى أن سقط أرضا.

خطّة الزعيم
في معركة العطش

1

التقى الزعيم بمدير المبيت صحبة سلمى للنظر في مشكلة كبيرة حدثت فيه وتزعّمتها سلمى بعد أن كثرت احتجاجات الطلبة.

صارت المياه التي تنزل من الحنفيّة مصفرّة اللون مخلوطة بالتراب. لم تعد صالحة للشرب. تترك حين يغتسل بها الواحد من الطلبة أثر جفاف في الجسم وتلبّد في الشعر. حتّى غسول الشعر والصابون الشامبو لم يعودا يحدثان الرغوات والفقاقيع إلّا بصعوبة.

اعتقد الطلبة أوّل الأمر أنّ المسألة ظرفيّة تعود إلى انقطاع الماء بسبب إصلاح للأنابيب يعود بعده كالعادة مخلوطا بشيء من الأتربة. كان ذلك مألوفا عندهم. لكنّه هذه المرّة امتدّ أكثر من يومين كاملين.

صار الوضع لا يطاق. الجميع لاحظ ذلك إلّا الزعيم رغم أنّه يعبّ حالما ينهض من نومه من الحنفيّة مباشرة ما بين لتر ولتر ونصف من الماء ويغتسل كلّ صباح لإزالة ما يلتصق ببدنه من عرق. لذلك لم يهتمّ كثيرا بمشكلة مياه الحنفيّة في المبيت عكس سلمى.

2

بدأت الحكاية استفسارات بين طلبة المبيت عن نوعيّة الماء ثمّ تذمّرا منه. اشتروا قوارير المياه المعدنيّة لمعالجة مشكلة الشرب في انتظار انفراج الأزمة للاستحمام. حين طالت الحكاية بدأت علامات الغضب

تظهر على الوجوه وتنفجر في الألسنة. اتّصلوا بالزعيم فسمع منهم ولم يهتمّ كثيرا لما قالوا. اتّصلوا بسلمى فوعدت بمتابعة المسألة.

التقت سلمى بالزعيم على طاولة العشاء. تحدّثت إليه. كان طبعا على علم بالحكاية وإن لم يلاحظ ما قاله الطلبة ولم ير إشكالا كبيرا. أقنعته بضرورة الاتصال بمدير المبيت فاقتنع بسرعة فالقول ما تقوله سلمى.

لكنّ نقطة التحوّل الكبرى في الحكاية ارتبطت بخبر مؤكّد حمله أحد الطلبة. لقد قام مدير المبيت من باب التقشّف في فاتورة الماء بحفر بئرين غير عميقين في حديقة المبيت وربط بهما جميع القنوات الموصلة للمياه بعد أن قطع الربط بمياه شركة الصوناد. ولا تفسير لتغيّر طعم الماء ولونه إلّا هذا. نسبوا ذلك إلى حارس مبنييْ المبيت الذي انزعج بدوره من تغيّر الماء.

ضجّ الطلبة وهاجوا وماجوا. تأكّد الجميع من أنّ المدير يريد أن يبرز للمسؤولين قدرته على الضغط على المصاريف بتخفيض فاتورة الماء خصوصا أنّ الحملة الوطنيّة من أجل الحفاظ على الماء تحت شعار «قطرة ماء خير من ألف كنز» في أوجها. كانت سنوات الجفاف المتتالية قد خفّضت من منسوب الأودية. وها هو المدير الطموح يكشف عن عبقريّته في إيجاد الحلول بحفر الآبار.

3

سمّى الطلبة ما قام به مدير المبيت بسياسة التعطيش واتفقوا على خوض ما أسموه معركة العطش. بدأ التخطيط لها عفويّا. لم يشارك فيه الزعيم. سأله رفيقاه في الغرفة عن رأيه في المسألة. نظر إليهما ساخرا:

– شبيه الماء؟ دلال متاع بورجوازيّة صغيرة حقيرة...

– كيفاش يا قائد دلال، أحنا بيدنا هانا نشوف في الماء فسد وما عادش يتشرب؟

– اسمعوا، الحكاية هذي فارغة... الماء اللي تشوفو فيه فاسد، عندي أنا عاديّ وأكثر من عاديّ... حياتي كاملة نشرب من الغدران... وما صار لي شيء.

تبادلا النظرات مبتسمين. فهما أنّ الزعيم لن يخوض معركة تعطيش الطلبة. التجآ إلى سلمى الوحيدة القادرة على إقناعه بنظرة تصطنع البراءة أو بغنج مدروس.

4

في مكتب مدير المبيت كانت سلمى تتحدّث بحماسة وكان المدير ينظر إلى الزعيم يستجلي من ردود فعله موقفَه. حين لاحظ عدم اكتراث الزعيم بالمسألة قال مستبلها:

– أنا بيدي نشرب ونستحمّ بالماء هذا ما ريتش مشكلة الحقّ متاع ربّي...

– ما لا نكذبوا نحنا؟ أربعميات طالب يدّعيو عليك؟!

– يعيش بنتي آش مدخّلني أنا... يدّعيو ولاّ ما يدّعيوش أنا قتلك آش نعرف...

– آش نوّة معناها؟ هذي هي أشرب ولاّ طيّر قرنك...

– لا عاد موش هكة النقاش...

– آش من نقاش تحكي عليه؟ لواش تحفر في البيرين وتقصّ علينا ماء الصوناد... كنا رايضين لقشت مشكلة من الحيط.

رفض المدير اتهامات سلمى وردّها عليها. اعتبر أنّ ما قام به مصدره تعليمات عليا للتقشّف في الماء والمجهود الوطنيّ لتمكين المجتمع من الجيل الرابع لحقوق الإنسان وحقّ الأجيال القادمة في الثروات الطبيعيّة وحماية البيئة.

أضاف متعالما أنّ حفر الآبار واستغلال المواجل من التقنيات القديمة في تونس منذ عهد الرومان، وهي جزء من الموروث الحضاريّ التونسيّ، وما قام به لا يعدو أن يكون تثمينا لعلوم الأجداد وتفاعلهم مع بيئاتهم.

كانت خطبة عصماء تداخلت فيها حقوق الإنسان واليونسكو وعلوم الأجداد والحضارة التونسيّة ختمتها سلمى صارخة:

– يا سيدي أعطينا ماء يتشرب وتمتّع إنت بالجيل الرابع متاع حقوق الإنسان، وشيّخ روحك بعلم جدودك... يعجبكشي زادة... يا والله حالة مكربة.

غضب مدير المبيت من أسلوب سلمى في مخاطبته فنهضت لتغادر الاجتماع لو لم يتدخّل الزعيم مخاطبا

مدير المبيت:

– سي مصطفى المطلب بسيط وواضح... زيد فكّر في حلّ مشرّف يرضي الطلبة ويساعدك إنت ما ناش مزروبين... نرجعولك غدوة.

5

بعد يوم من هذا اللقاء أعلن الزعيم للرفاق والطلبة في اجتماع ليليّ أن معركة العطش تسير نحو الانفراج. فقد استطاع هو والرفيقة سلمى أن يفرضا على الإدارة توزيع قوارير الماء مع العشاء لكلّ طالب رغم تكلفتها المرتفعة على الإدارة.

هلّل الطلبة لهذا الإنجاز الثوريّ بادئ الأمر.

ألحّ الزعيم على أن يبدي كلّ طالب موقفه من نتيجة المفاوضات مع إدارة المبيت وأن يقع غلق الموضوع نهائيّا بعد ذلك، وكلّ من يعود إليه سيعتبر معطّلا للمعارك الحقيقيّة للجماهير الطلاّبيّة. لم يتكلّم أحد فقد أعماهم الخبر الذي زفّه لهم الزعيم عن النظر في الحكاية من جوانبها جميعا.

طلب التصويت بالأيدي على القرار بالرفض لمن يرفع يده وبالموافقة لمن لا يرفع. كان أسلوبا في التصويت غريبا لم يعتده الطلبة لكنّهم وجدوا أنفسهم مضطرّين إليه. وكان عدد من رفع اليد قليلا مقارنة بالأغلبيّة التي لم تفهم ماذا تفعل فسارع الزعيم بفضّ الاجتماع مؤكّدا على قبول الطلبة بالقرار ونتائج المفاوضات.

يومها لم ير المستشار ولا المسؤول عن البروتوكول في ما قام به الزعيم أيّ حكمة، لكنّهما لم يعبّرا عن رأيهما لا برفع الأيدي ولا بتركها مسدلة إلى أسفل. فقد تمّت الأمور بسرعة مقصودة ولا شكّ لأنّ الزعيم لم ير في تغيّر ماء الحنفيّة للشرب أو للاستحمام مشكلة. فهو عنده أفضل من ماء الغدران وكفى.

لكنّ المستشار عبّر للمسؤول عن البروتوكول عن خشيته من أن يكون الزعيم قد قام بصفقة مع مدير المبيت. شعرا بشيء من الإثم في غياب الدليل القاطع. وازنا بين شكوك في مواقفه والتسليم بنزاهته، وتركا الأمر معلّقا بين الشكّ واليقين.

6

مع مرور الأيّام واقتراب عطلة الشتاء نسي الطلبة مشكلة الماء. فأكثرهم تعوّد على الوضع الجديد رغم أنّ تزويد الطلبة بقوارير المياه المعدنيّة في المطعم الجامعي بدأ يتقلّص. لكنّ رفيقي الزعيم تشكّل لديهما شبه يقين من أنّ في الأمر صفقة.

فقد طرق عليهما يوم أحد باب الغرفة. كانا يستعدّان للنوم. فاجأتهما زيارة الزعيم الذي ينام باكرا قبل أن يستقلّ بغرفة خاصّة به بعد أن شاركهما الغرفة 122 ونكّد عليهما حياتهما.

سأله المستشار:

– كيف السبّة لتوّة فايق؟ ناوي تصبّح ولاّ قعدت خايف لا الثورة تقوم وإنت راقد...

ضحك الجميع لكنّ الزعيم طفق يهمس لهما مبشّرا بالخبر السعيد الجديد. فقد استطاع إقناع مدير المبيت بتمكينه كلّ ليلة أحد من مفتاح قاعة التلفزيون.

لم يفهما قصده بادئ الأمر. فالقاعة تغلق مع الحادية عشرة كلّ يوم، ويوم الأحد مخصّص لمشاهدة برنامج الأحد الرياضي إلى الحادية عشرة والنصف. علاوة على ذلك، لم يكونا يعلمان أنّ للقائد اهتماما خاصّا بكرة القدم ولا بمشاهدة المباريات ولا البرامج المخصّصة للتعليق الرياضي.

فسّر لهما أنّه تحصّل من مدير المبيت على امتياز لطالما سمع رفيقيه يرغبان فيه. ففاوض المدير وأقنعه بأن يمكّنه من مفتاح القاعة ومن آلة التحكّم في القنوات.

شرح لهما أنّه بمسعاه هذا يحقّق لهما بعض ما رغبا فيه ففهما المقصود. فقد كانت آلة التحكّم في الجهاز من مشمولات الحارس الذي يقوم وحده بتغيير القنوات حسب رغبة الطلبة. لذلك كثيرا ما تحسّرا على الغلق المبكّر للقاعة وعدم قدرتهما على مشاهدة قناة M6 الفرنسيّة بعد منتصف الليل.

تعمّد الرفيقان التعبير عن عدم اهتمامهما بالإنجاز التاريخيّ الذي حقّقه الزعيم زاعما أنّه لأجلهما. كانا يتحرّقان في سريرتيهما إلى النزول إلى القاعة ومشاهدة الشريط الإباحيّ الذي ستعرضه القناة على عادتها كلّ يوم أحد ليلا. ولكنّهما أظهرا عدم الاهتمام لأنّهما يعلمان أنّ العيفة لا يعرف تغيير القنوات ولا استعمال جهاز التحكّم.

اصطنعا الرغبة في النوم ممّا زاد في إلحاح القائد عليهما. ظهرت عليه علامات التوتّر والانفعال. حاولا إقناعه بأنّ الأشرطة التي تعرضها القناة تافهة لا تليق بقائد ثوريّ وأنّها للاستهلاك الرخيص، ولا يرغبان أن تنطلق الألسنة بالإشاعات والتقوّلات عن الزعيم المفدّى. لكنّه أصرّ وأصبح يتذلّل لهما:

– ماني خوكم أهبطوا معايا نتفرّجوا شويّة برك، راني عمري ما ريت فيلم ساكس...

صمتا فزادا في نرفزته. كان من الواضح أنّه ملهوف على مشاهدة الشريط. فأرخى له المسؤول عن البروتوكول العنان مقترحا عليه أن يصاحبه لينتقي له القناة فقط ثمّ يعود إلى النوم.

في قاعة التلفزيون جلس ثلاثتهم يشاهدون شريطا مبتذلا. كانا قد شاهدا أفضل منه إغراء وإثارة. لكن العيفة بدا منذ اللقطات الأولى مشدوها يقوم من كرسيّه الذي جلس عليه. يصعد على كرسيّ آخر. يقرّب وجهه من الشاشة كمن يستطلع خبايا متوارية وراء جسد الممثّلة أو الممثّل وهو ملتحم بها. ينزل من الكرسيّ الذي اعتلاه. يتأخّر ليتأمّل الصورة عن بعد مبهوتا. يصدر عنه تأوّه أو شهيق قويّ أو صفير وزفير كأنّه نشيج.

كان يختلج ويرتجف ويرتعد، تكاد تأخذه غيبوبة أو دوخة لولا اضطرابه وتمايله وتلوّيه مع كلّ مشهد جديد ولولا حركته بين الكرسيّ وجهاز التلفزة جيئة وذهابا.

كان الرفيقان ينظران إليه وإلى حركاته الغريبة والأصوات المخيفة التي تصدر عنه أكثر ممّا كان يشاهدان الشريط. لكنّهما قرّرا أن يغادرا القاعة ما إن لاحظا أنّه غاب عنهما في عالم آخر. فقد شرع يدلك ما تحت سرواله ويدعكه ويعركه ويفركه غافلا عن وجودهما معه في القاعة. ثمّ أخرج آلته أمامهما.

كان مشهدا مقزّزا لم يطيقا رؤيته فغادرا القاعة وتركاه وحيدا. والغريب أنّه لم يفطن لخروجهما.

الزعيم وحرب المواقع

1

كان الزعيم قد دخل على مدير المبيت يوم الجمعة السابق. لم يطلب لقاء رسميّا. فاجأه برغبته في الحديث عن المطالب الطلاّبيّة بعد أزمة الماء ومعركة العطش. قال المدير:

– آش فمّة زادة إن شاء الله خير؟

أعاد على مسمعه ما ورد في البيان الانتخابيّ لقائمة النضال الطلاّبي الراديكالي. طلب تحقيقها جميعا.

عبّر المدير عن موافقته عليها جميعا دون استثناء، لكنّه أشار إلى أن تحقيقها أمر صعب، وبالنسبة إلى بعضها مستحيل لكنّه مستعدّ للتفاوض في صيغ الإنجاز وآجاله وترتيب المهمّ والأهمّ فيها.

اختلطت الأمور على الزعيم. قال له:

– ماك موافق عليها خلينا نطبّقوها.

– الموافقة معناها لو كنت مكان الطلبة لطالبت بها والتطبيق بالنسبة ليّ كمدير صعيب أحيانا ومستحيل أحيانا أخرى.

– ما لا على شنوّة باش نتفاوضو؟

– على تحقيقها...

– هاك قلت صعيب ولاّ مستحيل.

– مالا التفاوض علاش خلقوه العباد؟ للحاجات اللّي يتفقوا عليه؟ شبيك يا زعيم في بالي بيك ذكيّ تبارك الله عليك...

شعر بوخز حادّ في كبريائه. تلعثم وهو يرتّب أفكاره. لم يعرف كيف يدخل قلعة هذا المسؤول بلغته المتناقضة المنسجمة في آن واحد. أدرك أنّه يشعر لأوّل مرّة في حياته بأنّه يخاطب مسؤولا في الدولة، وليس أمام طلبة يكفي أن تثير حماستهم أو تقول لهم ما يعجبهم ليصدّقوك.

تذكّر الكاتب العام الجهوي للاتّحاد في مسألة تقييم الأساتذة. تذكّر نصائح سي جاء وحدو في خلوتهما عندما لمّح له بأنّه يحتاج إلى إضراب يقطع به الألسنة الخبيثة ويدعّم صورة القائد الطلاّبي الذي يتحكّم في الكلّيّة، واقترح عليه أن يكون إضراب مساندة للعراق. تذكّر كاتب عام الكلّيّة يوم فرز أصوات الانتخابات، وكيف رتّب انتصار الرفيقة.

بدأ الزعيم يشكّ في قدراته. فهم أن الواقع أشدّ تعقيدا من الشعارات وأنّ الدولة المنتصبة أمامه أصعب من حلم الثورة الرومانسي الرائق.

لكنّ ما فهمه الزعيم وهو يحدّث نفسه، والمدير يتكلّم كلاما لم يكن ينصت إليه، هو أنّ موقعه الآن ممثّلا للطلبة في المبيت والكليّة وزعيما يحرّك الطلبة كخاتم في إصبعه أصعب من موقفه مناقشا أو مجادلا للتيارات السياسيّة الأخرى.

استفاق من نجوى النفس على المدير يقول له:

– وإنت عندكش مطلب خاصّ بيك؟ ما تنساش روحك يا زعيم... شويّة لربّي وشويّة لقلبي.

لم يفكّر طويلا. تذكّر حديث رفيقيه عن قناة فرنسيّة تعرض أشرطة إباحيّة ليلة الأحد. فوافق على منحه مفتاح القاعة وآلة التحكّم عن بعد كل ليلة أحد على أن يرجعها إليه في الصباح.

تذكّر أنّه يحتاج إلى غرفة فرديّة خاصّة به فقد صار العيش مع الرفيقين مملاّ بقيود كثيرة. كان يتمنّى أن ينزع ثيابه في الليل وينام عاريا دون رقيب. يشتهي أن يغنّي متى يحلو له الغناء وأن ينفخ في شبّابته. يحبّ أن يضرط متى يريد. يتشوّق إلى أن يستمني على راحته حين يتذكّر سلمى ووجوه الطالبات الجميلات. يودّ لو يلقي الشعر البدويّ بصوت مرتفع عن سلمى التي سكنت روحه وجسده. أمنيات ورغائب كثيرة لا يسعه أن يحقّقها إلّا إذا كان وحده مثلما كان يفعل خلال خلوته في الجبل.

خرج الزعيم من اللقاء بمفتاح الغرفة 416. لم يذهب يومها إلى الكلّيّة بتعلّة الإرهاق والرغبة في أخذ نصيب من النوم إثر أرق ألمّ به في الليل على ما قال لرفيقيه. لكنّهما حين عادا من الكلّيّة في المساء لم يجدا فراش الزعيم وأدباشه.

2

كانت عطلة السداسيّ الأوّل قد اقتربت. لم ينظر المستشار والمسؤول عن البروتوكول بعين الرضا لقرار الزعيم بالاستقلال عنهما، لكنّهما شعرا ببعض الراحة. فخلال الأيام التي قضاها معهما، ما يناهز الشهر ونصف، صنعا زعيما امتدّ نفوذه بسرعة. كان يضحكهما كثيرا في السرّ بسلوكه الأخرق وكلامه المبهم ككتل الظلام، ورغبته الشديدة في سلمى التي تراه قعرا جلفا، طفلا متوحّشا، كما أسرّت لهما فأسكتاها حتّى لا تشيع ذلك عنه لدى الطلبة.

لكنّ العامل الحاسم في شعورهما بالرضا أنّ صاحبنا كان مزعجا بنغماته الحزينة كلّ صباح، وشخيره السمج المقلق وكوابيسه المتكرّرة التي يصرخ فيها صراخا يقطّع القلب، ورائحة العرق التي يتركها كلّ صباح على لحاف السرير. كان يسمّيانه الخنزير في أحاديثهما الثنائيّة ويسبّانه سبابا مقذعا على قدر الرفع من شأنه أمام الآخرين.

وجدا أنّ قرار الزعيم حكيم، جدّا كأنّه سمع بحدسه رغبتهما في التخلّص منه. إنّها حكمة غير مقصودة ولا شكّ. بيد أنّ ما طفقا يفكّران فيه هو الدواعي الحقيقيّة لهذا الاستقلال. فقد اعتقدا أنّ وراءه أمرا جللا.

اتّفقا على أن يتحدّثا معه بشيء من المظلوميّة والخنوع في آن واحد عساهما يصلان إلى نتيجة قاطعة. سأله المسؤول عن البروتوكول بعد أن هنّأه بغرفته الجديدة:

– توّة إنت قايدنا وما نجمو كان نحكيو معاك باللي في قلوبنا. قلنا قلّقناك في حاجة؟ قصّرنا في شيء؟ عملنا شيء ما عجبكش؟

– لا يا راجل فاش تحكي... هكاكة حبيت على بيت وحدي نرتاح وترتاحو أنتوما...

– ترتاح؟ هاك قلتها معناها كنا مقلقينك...

- تي موش هذا... نحب نغني وتنشطح ونبصّ ونعيّط وحدي من غير ما نقلقكم هذي هي الحكاية شبيكم خذيتوها بمعنى آخر؟

التفت إليه المستشار متخابثا:

- على كلّ البيت بيتك تجي وتمشي وقت اللي تحب وأحنا يشرفنا قايدنا يزورنا وما يكونش متغشّش علينا...

3

نادى الزعيم رفيقيه بعد يوم الأحد المشؤوم. حدّثهما عن امتناع مدير المبيت عن الإيفاء بتعهّداته وتنفيذ النقاط الواردة في البيان الانتخابيّ. سمعاه يتهجّم على المدير وينعته بنعوت بشعة. تفاجأ الرفيقان بما قال. فكّر كلّ واحد منهما أنّه قد تسرّع في الشك في انبطاح الزعيم لمدير المبيت وتعاونه معه لخيانة مطالب الطلبة.

ذكّرهما بالمطالب كما وردت في البيان. فكّر في أسلوب المواجهة لفرضها. شرع يستبعد كلّ شكل نضاليّ لا يناسب استعدادات الطلبة جنود الزعيم في معاركه. أقصى إضراب الجوع ثم أقصى مقاطعة المطعم فالاعتصام في الإدارة فالتظاهر أمام الإدارة لساعات محدودة. كلّ ذلك غير مناسب لأنّ العطلة قريبة ستكون في نهاية الأسبوع الجاري ويخشى ألّا يجد استعدادا وتفاعلا من الطلبة المتلهّفين إلى العودة إلى مدنهم وقراهم.

تطارح مع الرفيقين إمكانيّة حرق جزء من الإدارة، مثل مكتب المدير، على سبيل التحذير. وجدوا أنّ هذا الأسلوب الثوريّ الراديكالي قد يقدّم مبرّرا للسلطة كي تنكّل بهم متعلّلة بممارسة العنف. اقترح الزعيم أن يدخل على المدير في مكتبه ويفرض عليه وثيقة يوقّع عليها تتضمّن موافقته على المطالب وتحدّد آجال التنفيذ. خشي الرفيقان عليه من اتّهامه باحتجاز موظّف عموميّ أثناء أداء مهامّه، فيقبض عليه ويسجن فتحرم الحركة الطلاّبيّة المناضلة من حكمته السديدة وقيادته الفذّة.

قال لهم في ثقة:

- لا تخشوا شيئا أنا مستعدّ لكلّ الأشكال النضاليّة بما في ذلك ممارسة العنف الثوريّ فالسجن لا يخيفني... عشت ما أصعب منو ويتسمّى فندق بالمقارنة...

حيّا في القائد استعداده للتضحية من أجل الطلبة، وملأه لموقعه القيادي كأحسن ما يكون.

أخذ ورقة البيان الانتخابي بين يديه قلّبها. ثمّ قال:

– إذن تفضّلان أن نخوض حرب مواقع مع المدير لا معركة شاملة؟

ردّا بالإيجاب دون أن يفهما المقصود تحديدا. فسّر لهما الحاجة إلى تكتيكات المناورة وضرب العدوّ من خلف دون الصدام معه مباشرة. شرح لهما أنّه عليهما أن يجدا التكتيكات المناسبة لكلّ نقطة من نقاط البرنامج دون ترتيب بل بحسب الإمكانيّات المتاحة. سماها حرب العصابات.

اعتبر الرفيقان أنّ الزعيم يبرهن على معرفته العميقة بالحرب وأنواعها وخططها وتكتيكاتها وأسلحتها كما لو انّه خرّيج أرقى المدارس العسكريّة. زاد إعجابهما به بعد فترة شكّ رانت عليهما منذ أن استقلّ بغرفته وتحصّل على مفتاح غرفة التلفزيون وحالة الاهتياج التي رأياها عليه.

همس المسؤول عن البروتوكول بعد نهاية اللقاء مع الزعيم إلى رفيقه المستشار:

– يظهرلي السكنى وحدو خلاتو يفكرّ على راحتو ويبدع في التكتيك والاستراتيجيّة... بصراحة قائدنا غول دمدوم.

4

مسك الزعيم ورقة البيان في يده ووضع إصبعه الطويل على سطر منها وقرأ:

– «ستعمل قائمة النضال الطلاّبي الراديكالي على تمكين الطلبة إناثا وذكورا من التزاور للتشارك في إعداد دروسهم وتنمية الحسّ النقديّ الجدليّ بينهم».

فاجأهما بهذه النقطة. فسّرا له أنّها ليست أولويّة، فأسكتهما بأنّ حقوق الطلبة لا تتجزّأ ومطالبهم جميعا ينبغي أن تنفّذ. وأضاف:

– شكون اللي قاللكم ما صوتولناش على خاطر النقطة هذي؟ ماني شرحتهالكم ووافقتو؟

سكتا. طفقوا جميعا يفكّرون في أسلوب تحقيقها على أرض الواقع.

اقترح المستشار إعلام الطلبة تدريجيا بضرورة تنظيم يوم أسبوعيّ، ليكن يوم السبت ليلا أو كامل يوم الأحد، للتزاور رغم أنف الإدارة التي ستعجز عن مواجهة حركة جماهيريّة متماسكة.

رأى المسؤول عن البروتوكول أنّ المطلوب أكثر من هذا وهو حريّة الطلبة في التزاور دون قيود أو ضغوط أو خوف. قال:

– ما حُرمنا منه بالخوف والعادات والفكر الرجعيّ لن نفتكّه إلّا بالقوّة.

كان مدار النقاش على تعويد الإدارة بفرض التزاور شيئا فشيئا بمثل ما اقترحه المستشار، أو فرضة مرّة واحدة مهما كان الثمن.

لفت الزعيم انتباههما إلى أنّ العائق الحقيقيّ أمام التزاور بين الطلبة إناثا وذكورا هو عائق وهميّ. قال لهم:

– طرح الأسئلة الجيّدة يوصل إلى الحلول الجيّدة...

انبهر الرفيقان مرّة أخرى بالحكم التي يلقيها الزعيم.

– ماهيش المشكلة في مدير المبيت كان طارت يعمل روحو ما سمعشي؟ أما شكون باش يوصّلّو؟ ماو كالقوّاد متاعو عمّك البرني العسّاس اللي ليل كامل وهو منصّب بين الزوز مبيتات يعسّ على الداخل والخارج في البيت متاعو؟...

– والله بالحقّ يا قائد كيفاش ما جاتش لبالنا...

كانت النتيجة واضحة. كيفيّة التخلّص من البرني القوّاد أو تحييده!

اقترح المستشار أن يرسلوا طالبتين أو ثلاثا تشتكيان لدى المدير به على أساس أنّه تحرّش بهنّ. ردّ عليه الزعيم موبّخا إيّاه على سذاجته. فحتّى إن صدّق المدير فإنّه سيغيّره بحارس آخر قد يكون مثله أو أشدّ تعاسة. وأضاف في لهجة جادّة وبصوت واثق:

– لا نبني ثورتنا المجيدة على الأباطيل والأكاذيب مثل البورجوازيّة القذرة. فالوسائل من جنس الأهداف. مفهوم!؟

اعتذر المستشار عن تسرّعه مكْبرا مرّة أخرى حكمة القائد ورؤيته الاستراتيجيّة ونبله الثوريّ حتّى مع أعداء الثورة.

بعد نقاش طويل وضع لهم الخطّة وما عليهم إلّا التنفيذ.

5

منذ أن استقلّ الزعيم بغرفته في الطابق الرابع عاد الرفيقان إلى نظام حياتهما السابق: سهر وسمر ولعب ورق ونقاشات تمتدّ إلى ساعة متأخّرة من الليل.

لكنّ بعد وضع الخطّة صارا يسهران في غرفة عمّ البرني الواقعة في المنطقة الواصلة بين بنايتي المبيت الفاصلة بين الذكور والإناث. كان البرني يعدّ لهما الشاي وكانا، حسب اتفاق مسبق، يجلبان معها السجائر الفاخرة التي يحبّها ويسمّيها «الدخان الفاوح» وإن ظلّ يدخّن سجائر «الخضراء».

يقضّي ثلاثتهم الساعة والساعتين يتسامرون ويتبادلون الحكايات والنكات الخضراء. روى لهم تقريبا كلّ ذكرياته من يوم وصوله إلى العاصمة ودخوله إلى المبيت حين كان أرضا بيضاء لا آلة فيها ولا قطعة آجرّ ولا شكارة سيمان. حدّثهما عن الأفاعي والأعشاب السامّة والأشجار الكثيفة غير المثمرة التي كانت تغطّي المكان. انتدبه المقاول المكلّف بالبناء وبنى له فيها كوخا من الزنك ليمنع السكارى وأبناء الأحياء المجاورة من الدخول إلى الأرض. أخرج العصا الغليظة التي لم يروه يوما بدونها، يلوّح بها في يديه أو يخفيها تحت القشّابيّة، وقال:

– وحدي في البرّ هذا الكلّ ما عندي ونيس كان الزلاّط هذا. إسألوه قدّاش خوّف من ترّاس وضرب من فرخ هامل يسخايب روحو باندي. ما تشوفونيش توّة بديت نكبر نحكيلكم وأنا عمرى ثنينة وعشرين. معناها عشرين سنا لتالي.

6

في الصباح الموالي، كان يوم ثلاثاء، رأى الطلبة المغادرون للمبيتين باتجاه المطعم ثم الحافلة أنّ عمك البرني حلق شنبه وإن أخفاه بالقشّابيّة. ولفت انتباههم أيضا أنّ الزلاّط الذي يدحرجه أمام الطلبة أو يضرب به كفّه كالمهدّد قد اختفي من يده.

انتشر الخبر بين الطلبة فكانوا يتضاحكون ويسألونه ساخرين:

– هاك ولّيت بوقوص بلاش شلاغم عمّ البرني.

– تي ماو لاباس؟ وينو الزلاّط تسرقلك؟

– يا ما أحلاك عمّ البرني بلاش شلاغم وبلاش زلاّط... والله تقولش عليك عمر الشريف.

– بصراحة ناقصتك كسوة سوري وتولّي إنت المدير عم البرني.

– ينعن بوزينك بلاش شلاغم.

وكان يردّ عليهم حسب الذكور الهازئين أو البنات الساخرات بكلام بذيء لاعنا حانقا: «برة إقرا على روحك آش مدخلك»، «برة لنجي نحيلك والديك يا كبّول»، «برّى يهديك سيّبيني على الصباح»، «توة نشدّ نزلّطك بيديّ يا بنت الحرام».

7

روى المستشار والمسؤول عن البروتوكول وهما يقدّمان إلى الزعيم تقريرهما الشفويّ بعد نجاح الإنذار الأوّل أنّه في الليلة الفاصلة بين الإثنين والثلاثاء، في حوالي الحادية عشرة، وضعا حبّة «فاليوم» في كأس الشاي حين ذهب البرني يتفقّد باب مبيت الفتيات ويحكم غلقه. ولمّا شعرا أن المنوّم بدأ يؤتي مفعوله غادرا بيت الحارس ليلتحقا بغرفتهما. عادا بعد نصف ساعة فوجداه يغطّ في نوم عميق يدلّ عليه شخيره المتصاعد المتصادي في فضاء الغرفة الضيّقة. كان ممدودا على السرير فأخذا آلة الحلاقة التي جلباها معها وحلقا له شلغومه الكثّ. وجدا العصا الغليظة داخل القشّابيّة فسرقاها منه وهي الآن من ضمن المحجوز.

ضحك الزعيم الذي لم يروه يضحك البتّة يومها ضحكا كثيرا، وشكر الرفيقين على دورهما المحوريّ في تخليص الطلبة من شرطيّ مدير المبيت الملعون.

8

اختفى البرني من المبيت لمدّة أسبوع. أخذ حسب ما بلغهم من الإدارة راحة مرضيّة بأسبوع عاد بعدها وقد بدأ شلغومه ينمو وإن ظلّ قصيرا رقيقا مقارنة بما كان عليه من كثافة وسماكة.

بدا مهموما بعض الشيء حين زاره الرفيقان مستفسرين عن حاله. لم يشكّ فيهما لكنّه عبّر عن حنقه وغضبه ممّا وقع له في سنّه تلك، بعد عشرين عاما من الخدمة. قال متألّما:

– ولد الحرام نجم يعمل اللي ما عملوش غيرو في عشرين سنة. صحة ليه وبرّة أما ما عنديش دليل...

– تعرف شكون عمل فيك ها الحالة؟

– نعرف أما اللي في القلب في القلب...

– قوللنا شكونو عمّ البرني واحنا نوريوك فيه.

لم يجبهما. شرد ذهنه وظلّ ينفخ صفيرا مسترسلا متحسّرا. كان يدحدح رأسه وتصدر منه بين الفينة والأخرى زفرة طويلة.

9

لم يصبر على إخفاء قهرته في صدره. كان يريد أن يبوح بشيء لهما. نهض. أخرج رأسه متثبّتا من جهتي البنايتين. عاد إلى الفراش. وقف ليوارب الباب قليلا. جلس على حافة السرير وطفق يتكلّم همسا ووشوشة.

– تعرفو في شكون شاكك؟ ها كالعضروط اللي تسميوه قائد. وحقّ النبي محمّد ما يكون كان هو ولد الحرام...

– يزّي عاد زعمة؟ منين ليك ها الهدرة؟

– اسمع اللي تعدّاو الكلّ من المبيت بنات وولاد نعرف جدّ أصلهم وحكاياتهم الكلّ إلاّ ها الكبّول ما جبتلو خبر.

– إيه عاد تتّهموا بحاجة كبيرة كيف شلاغمك وزلاّطك...

- نتّهمو أما صحة لمذهب دين والديه ما عنديش دليل ولاّ نشكي بيه للبوليسيّة يدقّوه في قلبو.

- وعلاش شادد فيه صحيح، ما نتصوّرش واحد من الطلبة إنت كيف بونا ولا خونا والعباد الكلّ تحبك...

- اسكت عليّ تحبك لفعة يا منجوس...

-............

- أكا النهار هبط الفرّادي الساعتين متاع الليل يطلفح، عينيه حمر كيف الكلب المكلوب وزادم على مبيت البنات، وقفتلو بالعصا قتلو وين ماشي يا زعيم أحقرني وباقي يدزّ في الباب يحبّ يخلعو شدّيت العصا وضربتو على يدّو بالقويّ وخّر لتالي وقالي يلزمني نطلع قتلو على خير وين؟ قالي لبيت سلمى. ظاهر فيه ولد الحرام وقفتلو في ظهرو يحب يفلق البنيّة. تصوّر بلدغ شادد جرو صغير. الحقّ ما سكتش عليه وقتلو شدّ مضربك لا نكسرلك راسك بها الزلاّط وما نعرفش كيفاش هداه ربّي ورجع للمبيت كيف الخرّاي.

10

تغيّر سلوك عمّ البرني وإن ظلّ حانقا. فقد اكتشف الرفيقان أنّه استوعب الدرس ممّا وقع، إذ قال لهما بعد نقاش طويل عن مهمّته:

- شوف في الأصل، أنا نحمي المبيت من البرانيّة والسرّاق، أما هذوكم كاينهم بناتي نحميهم. وبعد اللي صارلي ولّيت نقول لروحي كيما قالي المدير آش مدخّلني في ترم العباد الله لا تردّ فاس على هراوة.

لم تعد حكاية البرني العسّاس مثيرة بالنسبة إلى المستشار ورفيقه. بدت لهما حكاية تنفيذ البرنامج الانتخابيّ والشروع بنقطة التزاور مسرحيّة أراد بها الزعيم الثأر لنفسه من البرني. شيء لا يصدّق. كلّ هذا الجهد من أجل هذا الانتقام من حارس بائس؟

كان عليهما تحذير سلمى من الزعيم فقد يكون في لحظات اتقاد شهوته لها وتوتّره من أجلها عنيفا وحشيّا

معها.

سأم الزعيم

1

بدأ القلق يأخذ من الزعيم كلّ مأخذ حين رأى طلبة المبيت يحملون تباعا حقائب وأكياسا ليغادروا عائدين إلى مدنهم وقراهم. وغرق أكثر في هذا القلق حين سأل عن سلمى فعلم بأنّها رحلت. فكم كان يودّ أن يراها ويتأمّل تقاسيم وجهها ويكحّل عينيه بقدّها ويتحدّث معها ويلمسها... كلّ ما خطّط له في خياله وهو مستلق على فراشه في غرفته انهار فجأة فانهار معه الزعيم نفسيّا.

لم يعد دخوله إلى المطعم مناسبة للاحتفال به. بعد حادثة حلق شلاغم عمّ البرني غادر المسؤول عن البروتوكول المبيت أيضا. أمّا المستشار فتمارض ليوم أو يومين ثمّ عاد إلى دشرته. كانا قد اتّصلا بالزعيم لإعلان ولائهما له واعدين إيّاه بالنضال خلال العطلة من أجل تهيئة ظروف الثورة كما يتصوّرها هو. شعر أنّ كلامهما كان مهلهلا سخيفا وحماستهما كانت فاترة باهتة.

عدد الطلبة الباقين في المبيت قليل، وهم بدورهم سيغادرون بعد يوم أو اثنين.

غدت الغرفة في الطابق الرابع موحشة. فلم يعد يرى أيّ طالب ليحييه وهو داخل إلى مملكته. لا شيء يعجبه:

يأخذ قصبته ليعزف عليها أنغامه المحبّبة فيتلاشى الصوت بعد النغمات الأولى.

يتكئ على الفراش ليستعيد وجه الحبيبة وتفاصيل جسدها، فتتشوّش الصورة في ذهنه وتتداخل الملامح ويسمع طنينا مصمّا في طبلتي أذنيه.

يذهب إلى الأدواش ليغتسل لعلّ الماء البارد ينعشه، فلا يجد في نفسه ألّا الفتور والرغبة عن التنعّم بالماء

المنهمر من الدشّ.

يعرّي نفسه في الغرفة ليمارس نشاطه اليوميّ في لمس الأعضاء الحسّاسة من بدنه، فلا يجد ما كان يجده من متعة في ذلك.

لم يبق له إلّا شعور قويّ بأنّه يحتاج إلى اختراق جسد امرأة، إذ صار في حالة انتصاب قصوى آناء الليل وأطراف النهار... وسلمى، حلمه المتكرّر، بعيدة عنه... تفسّخت صورتها وفسدت ملامحها في ذهنه. حتى جلد عميرة صار عاجزا عنه.

2

لم يكن الوضع في الكلّيّة بأفضل حال. دروس قليلة بعدد قليل من الطلبة. الإدارة منشغلة بترتيب الامتحانات.

خفتت الحركة في المشرب وهي المحرار الحقيقيّ لنشاط الطلبة في الكلّيّة، إذ كلما ازدحم المكان كان الإقبال على الدرس كبيرا. كانت الشطائر تنفد بسرعة لكنّه لاحظ أن قليلها الذي يعدّه العملة يبقى أحيانا إلى ساعة غلق المحلّ.

ظلّ يوما كاملا، يوم الأربعاء قبيل العطلة، ملازما لمقرّ المكتب الفيديرالي السابق فلم ير أحدا ولم يزره أحد عدا سي جاء وحدو الذي كان حاضرا دائما في الكلّيّة بطلبتها وبدونهم.

كعادته التحق به في العاشرة، موعد لقائهما اليوميّ منذ أن استقرّ الزعيم في مكتبه الجديد، مرفوقا بالعامل الذي أحضر قهوتين وقطعتي مرطّبات وقارورة ماء معدني (لسي جاء وحدو) وعلبة السجائر (للزعيم).

كان سي جاء وحدو نشطا لا يكفّ عن الحديث في كلّ شيء شلواشا يرحّب دائما بصديقه الزعيم، يسأله عن حاله ويستخبر عن جديده وجديد الكلّيّة ومشاكل الطلبة ووضع التيارات السياسيّة الأخرى. كان إذا دخل عليه يبعث في الجوّ هواء جديدا نقيّا ينفي الكدر والعكر ويستنبط من الصمت كلاما منعشا للنفس مثيرا ويغمر المكان حبورا وسرورا.

في ذاك اليوم شعر أن الزعيم لم يكن في أفضل حالاته. سأله وألحّ في السؤال. ظنّه مريضا أو يحتاج إلى

أموال ليعود إلى دشرته.

حدّثه عن الفراغ الذي يشعر به والقلق الذي سكنه. صار لا يجد كلماته ليعبّر بعد أن كان يبهر الطلبة بخطاباته وأقواله ويفتنهم ببلاغته. يصدر منه صوت ضعيف يكاد يستحيل حشرجة مريض عاف الحياة وينتظر ساعة الخلاص.

ظلّ سي جاء وحدو ينصت إليه بانتباه يستبصر ما يقوله. وبغتة قال له:

– اسمع يا زعيم هذاكة سيدك القشّاش متغشّش عليك قالك ويني الوعدة... يلزمك زيارة ونيارة وتوة تشوف كيفاش تتفرهد...

– يظهرلي بالحقّ يلزمنا زيارة.

انفرجت أسارير الزعيم. وعده سي جاء وحدو بيوم من أيّام الجنّة غدا الخميس وهو يوم مبارك يحضر فيه الرسول محمّد ويغيب إبليس.

رغب الزعيم أن تتمّ الزيارة في يومها فخير البرّ والوعدة عاجلهما. اعتذر سي جاء وحدو قائلا:

– اليوم عندي دفينة متاع زميل في الإدارة الله يرحمو.

– شكون مات من الإدارة؟

– لا موش إدارة الكلّيّة... نقصد واحد حبيّب.

لم يتوقّف الزعيم عند الكلمة التي استعملها سي جاء وحدو، ولكنّه اتّخذها قرينة أخرى على ما يتّهم به الطلبة المشتغلون بالسياسة صديقه جاء وحدو من علاقة بالأمن. فهو موظّف ولا شكّ فتحوا له هذا المشروع التجاريّ على سبيل إحكام مراقبة ما يجري في الكلّيّة والتمتّع ببعض منافع السلطة.

لم تثر هذه المسألة في نفس الزعيم وعقله أيّ احتراز فالجميع مستفيد: سي جاء وحدو، الطلبة الذين يجدون خدمات مقبولة عموما، الأمن الذي يراقب الوضع بامتلاكه للمعلومة اللاّزمة في الوقت اللاّزم، وبالخصوص الزعيم الذي آمنه سي جاء وحدو من جوع في الكلّيّة وكفاه شرّ تسوّل السجائر والقهوة، وهو الزعيم الذي يجب أن يكون محترما. وها هو يبلغ من الكرم مبلغا لم ينتظره منه، إذ يتكفّل بأمن بنيته التحتيّة ووعدته إلى الوليّ الصالح القشّاش في هذه الغابة التي تسمّى تونس.

3

دخلا المدينة العتيقة من جهة قصر الوزارة الأولى. مرّا بسوق البركة. وصلا إلى جامع الزيتونة. مالا على اليمين ثمّ توقّفا عند مطعم المرساوي.

طلب الزعيم، باقتراح من سي جاء وحدو، نصفَ رأس علّوش مصليّ. قال له مازحا:

– ردّ بالك تنسى وتاكل صوابعك معاه، عندو أبنّ رأس في برّ تونس.

أخذ الزعيم الرأس بين يديه وطفق يلعق زيته الذي يتقاطر منه ثم ينهش اللحم طولا وعرضا ويغمّس قطعة الخبز في الدسم يشرّبها ويبتلع اللقمة يكاد لا يمضغها. وما إن فرغ من اللحم حتّى أخذ يمتصّ المخّ ويستخرج ما التصق بالتجاويف من بقايا يقطعها ناترا ثم ينهشها.

كان سي جاء وحدو الذي طلب طاجين قوتة ينظر إلى طريقة الزعيم في الأكل مستغربا دون أن يعلّق. رآه قد انقبض انقباضا شديدا وجحظت عيناه واربّد وجهه كالغاضب فتغيّر لونه وانقطع نفسه وتعرّق جبينه. كان وهو يجول بلسانه وشفتيه وأسنانه في الرأس كأنّه عاشق مغتلم.

مسح يديه في الورق الذي أمامه ومدّ يده إلى جيبه ليخرج سيجارة، فنهاه سي جاء وحدو بلطف قائلا:

– على اليمين تلقى السبّالة اللي يغسلو فيها اليدين.

4

بعد كأس شاي أخضر بالنعناع في المقهى المقابل سار الرفيقان في اتجاه باب البحر. لكن بعد خطوات من المقهى التفت الزعيم على يساره واستوقف سي جاء وحدو. أدخله إلى مكتبة العسلي. أخذ بين يديه كتابا يتصفّحه. لم يكن سي جاء وحدو مهتمّا بما يفعل الزعيم فظلّ واقفا عند مدخل المكتبة إلى أن ناداه قائلا له:

– شوف النهار مبروك، هاني لقيت كتاب جدّي القشّاش.

ضحكا ونقد سي جاء وحدو المكتبيَّ ثمن الكتاب. كان عنوانه «نور الأرماش في مناقب القشّاش». علّق الزعيم مفسّرا أن ما شدّه إلى الكتاب إضافة إلى القشّاش أن أحد محقّقيه هو أستاذه بالكلّيّة لطفي عيسى الذي

تبهره دروسه وتعجبه «طلعاته» عن المتصوّفة الذين يرى في خرافاتهم ومناقبهم ما لا يراه الناس.

لكنّ الزعيم لام سي جاء وحدو على دفع ثمن الكتاب. قال له:

– لواش تزرب أنا عمري ما شريت كتاب؟

– كيفاش ما لا هاو ظاهر فيك تقرأ برشة؟

– نقرأ صحيح، أما ما نشريش الكتب، نسترجعهم...

– ما فهمتكش يا زعيم... تقصد من المكتبة متاع الكلّيّة؟

– شوف الكتاب وقتلّي تشريه يولّي بضاعة يستنفع بيها رأس المال، يلزمك تهزها بلاش على خاطر الثقافة حقّ للناس الكلّ...

– معناها تسرقها؟

– سميّها سرقة، أنا نسمّيها استرجاع حقوقنا من الرأسماليّين، ولاّ تأميم الكتب...

ضحك سي جاء وحدو ولم يواصل الحديث في المسألة وإن ظلّ الزعيم يحدّد مفهوم سرقة البورجوازيّة القذرة لفائض القيمة ودوره في اغتراب الإنسان وسرقة الإمبرياليّة للأوطان وخيراتها وأنّ ما جزاء السرقة إلّا السرقة التي لم تعد سرقة لأنها استعادة للحقوق المسلوبة.

واستمرّت حكايته مع السرقة إلى أن وصلا إلى محيط مقام جدّه ابن القشّاش أو حفيده أو سميّه.

5

همس لسي جاء وحدو أنّه يريدها بدينة ذات عجيزة كبيرة.

ألحّ عليه سي جاء وحدو ألّا ينظر إلى فرجها حين يستعدّ للضراب حتّى لا تتكرّر حكاية الزيارة السابقة، فتحرمه خيالاته من بركة سيدي عبد الله قشّ وتكتمل الوعدة هذه المرّة.

وضع في جيبه أموالا ثمّ طلب منه أن يلتقيا بعد ساعتين في المقهى القريب من باب البحر وله أن يتجوّل إن شاء بعد الفراغ من قضاء وعدته، فهو على موعد مع ابنه ليشتري له ملابس من مغازات نهج شارل

ديغول. وصف له المكان بدقّة وحذّره من أن يتوه مثلما وقع له في المرّة السابقة.

ما إن اختار الزعيم سعيدة الحظّ حتى تركه سي جاء وحدو.

حين رآها استعاد فصولا من حياته في تلك الدشرة البعيدة. تعاقبت الصور وتتابعت قطعا سريعة متداخلة. ففي زمن الشياح، وفي تلك الدشرة البعيدة، عندما بدأ يتحسّس عنفوان آلته وهي تحتكّ بفخذيه ويفركها بأصابعه كان يبحث له عن موطن لزج يدفنها فيه. كانت أذنه قد تلقفت حديث من هم أكبر منه بسنوات معدودات أن البهيمة تمنحه لذته المنشودة، وسمع طرائف عمّن فضحتهم البهيمة في الدشرة ضراطا ونهيقا لحظة الضراب. كان ذهنه الوقّاد قد هداه لشيء ما في تجربته الأولى التي كانت كشفا واستحالت قدوة.

إنّه الزيت... لا شيء يمكن أن ينجيه من ردة فعل البهيمة غير الزيت. ذهب إلى أطراف الدشرة مع تربه ورفيق دربه حمودة. أمسكا أتانا ترعى، وبتوجيهات العيفة الحكيمة أمسك حمودة البهيمة من رقبتها واحتضنها. ناوله ذيلها فأمسكه ليتكشف جحرها. طلب منه ألّا ينظر إليه فأشاح حمودة بوجهه عنه. أنزل سرواله سكب من قارورة الزيت البلاستيكية قطرات منه في يده. دهن الآلة والجحر. أولجها دفعة واحدة فانزلقت سريعة خفيفة. لم تبدِ البهيمة أيّ رد فعل، فابتسم نشوة. لقد ستره الزيت من الفضيحة. انتهى إلى غرضه وحمودة ينهره بالإسراع حتّى يأخذ دوره.أنجز حمودة مهمته بنجاح مماثل.

سرى حديث في الدشرة أنّ العيفة وقاهم شر الفضيحة بأسلوب الزيت. ومن يومها صارت تسمّى طريقة العيفة: فعلاوة على أسررا الزيت، يمسك ترب له الأتان من رأسها، يقرّبه إلى صدره، وبيمناه يمسك الذيل، يضع حجرا أو قطعة آجرّ ليصبح في مستوى الجحر. يشرع في الدخول والخروج السريعين إلى أن يستحيل حديده حبلا مرتخيا. وعليه أن يردّ إلى الترب جميلَه.

لكنّ العنت الذي يجده مع الأتان لا يعادله مشقّة ومُقاساة إلّا إتيان الماعز. بيد أنّ الزعيم ابتكر أيضا طريقة تجعل قضاء الأرب يسيرا، فعمّمها في دشرته وصارت تعرف كذلك بطريقة العيفة.

كان اعتياص الماعز يتأتّى من عسر رفع ذيلها وتركيح ساقيها في آن واحد، حتّى إن أمكن بمساعدة أحد الأتراب شدّ رأسها. لكنّ نباهة الزعيم منذ الصغر وعبقريّته الفذّة فتّقت ذهنه عن حيلة عجيبة. إذ وجد يوما جَزْمة من البلاستيك تغطِّي السَّاقين وتبلغ إلى نحو الرّكبة يستعملها عمّه في الأعمال الفلاحيّة حين يقْلبُ

المطرُ التربةَ طينا تغوص فيه الأرجل. فكان يلبس الجزمة ويضع رجلي الماعز الخلفيّتين فيها فيربح بذلك شيئين بضربة واحدة: لا تستطيع أن تتقافز ويمكنه أن يرفع ذيلها بسهولة لقضاء الوطره.

لم ينتشله من ركام الصور المتلاحقة في شاشة ذكرياته إلّا صوتها يطلب منه الاستعداد بنزع معطفه وإنزال سرواله.

– هيّا يهديك ازرب روحك، ما نيش باش نعدّي العشويّة الكلّ نستنّى فيك...

نظر إليها كظيما مغتاظا. كان مهتاجا. احمّرت عيناه. جحظتا. اصطكّت أسنانه. ارتعشت يداه كأنّه مقرور. اربدّ وجهه. انبهر. تحيّر بصره. سدر. لم يعد يسمع ولا يبصر.

وقف قبالتها. اقترب منها. أخذها بين يديه بقوّة. وضع يده على فمها. أدارها. التصق بعجيزتها بدأ يحكّ بسيفه البتّار. كانت تسمع لهاثه الذي تصاعد شيئا فشيئا إلى أن استحال شخيرَ ثورٍ مذبوح. ألقى بها على الفراش. كان وجهها على اللحاف وهي تضطرب اضطراب المختنق. ضغط عليها بيده وحاول باليسرى أن يخرج سيفه من فتحة السروال. أحست بماء دافق حارّ يتسرّب من السروال. بدا عليه الفتور أو التعب والإعياء.

سمعها تنشج وتحاول إخفاء نشيجها. لم تعرف كيف ابتعد عنها. استرقت إليه نظرة حذرة. كان ساهما شارد الذهن. يتصبّب جبينه عرقا. قالت له:

– أخرج يا حيوان، يلعن والديك ووالدين اللي جابوك، فجعتني... ما لا خراوات، اقلب عليّ منظرك لا ناديلهم يكسّرولك وجهك.

6

كانت الساعة حوالي الرابعة بعد الزوال.

لم يعرف الزعيم كيف وجد نفسه أمام مكتبة «العيون الصافية» ولا من أين وصل إليها. هام على وجهه حين خرج من مقام وليّه الصالح وهو في شبه غيبوبة.

استوقفته الكتب التي تزيّن واجهة المكتبة. رأى كتابا فنّيّا أنيقا بالفرنسيّة عن قرطاج. ظلّ يتأمّل الوجه على

الغلاف: رأس امرأة في دائرة، مجعّدة الشعر كأنّه ملفوف في بُخنق أو تقريطة، على الأذنين يتدلّى قرطان. شفتان مكتزنتان. أنف متوسّط. ظنّ الرأس قناعا. بدا له القناع مصنوعا من طين. كان مكسورا متصدّعا. قرّب وجهه ليثبّت من الثلمة على الصورة. استوحش من العينين الفارغتين في المحجرين.

قادته قدماه إلى داخل المكتبة. لم ينتبه إلى العيون التي تتبعه. اقترب منه العامل الزنجيّ وسأله إن كان يريد مساعدة. ردّ عليه بالنفي بإشارة من رأسه.

كان يمرّ بالصفوف يتطلّع إلى عناوين الكتب. يأخذ كتابا ويتصفّحه. يتروّى الفهرس أحيانا. وجد مجموعة من كتب هشام جعيّط. نظر إليها متلهّفا. شرع يقرأ من «الفتنة الكبرى» بالفرنسيّة الصفحات الأولى.

حين وصل إلى الباب وهمّ بالخروج وجده مغلقا. وقف أمامه عونان منهما الزنجيّ وامرأة أجنبيّة. عرفها من شعرها الأشقر وعينيها الخضراوين. نظر إليهم مستفهما مستغربا. أجابه الزنجي:

– لحظة الباب تسكّر علينا هاو جايين يحلّوه... وسامحنا بربّي على التعطيل.

عاد ينظر في الكتب على الرفوف. إن هي إلّا دقائق حتى وجد نفسه محاطا بشرطيّين. طلبا منه أن يعيد الكتب. بتؤدة وهدوء أخرج من بين ملابسه، تحت القميص ومن حزام سرواله الخلفيّ، أربعة كتب. كان معطفه الواسع الكبير يغطّي الكتب المسروقة.

تقدّم أحد الشرطيّين وشرع يجسّ ملابس الزعيم لعلّه تناسى كتابا داخل ثيابه. دفعه الزعيم في عنف صارخا:

– هزّ يديك لا نفشّخك توة...

بسرعة أحاط به العونان في المكتبة وأخرج الشرطيّ الثاني قيدا من جيب سرواله الخلفيّ، وبلباقة وسرعة صفد يديه ووضعهما في الخلف ومسكه من رقبة معطفه.

7

في مركز شرطة نهج يوغسلافيا، وجد الزعيم نفسه مع جمع من الموقوفين ينتظر تسجيل المحضر الخاصّ

بجريمته. لم يجد مكانا للجلوس فتثبّت الشرطيّ من قيده طالبا منه البقاء واقفا. برك على الأرض فلم يفطن إلّا إلى أحد أعوان الأمن بزيّ مدني يركله قائلا:

- قوم نيّـــ... ماناش في سيدي محرز يلعن دين والديك...

وشوش له العون الذي أحضر الزعيم فقال:

- طالب وسارق ولد القحـ... يسلم قرايتو.

التفت له الزعيم وبصق على وجهه ثم صرخ:

- المهمّ مانيش خديم حاكم ومكلّف بقمع الجماهير الشعبيّة... وما سرقتش دار بوك...

نظر إليه العون مستهزئا والتفت إلى زميله باللباس الرسميّ:

- تسمع في ها الميبون فاش يحكي... خليوهولي توّة نورّيه شنوّة معناها القمع...

ومن دون أن ينظر إليه سدّد له لكمة في البطن أسقطته أرضا ثمّ استدار يريد أن يشبعه ركلا ورفسا لو لم يمسك به زميله.

في المصطبة الصغيرة الملتصقة بالحائط الأيمن للبهو كان الجميع يتابع المشهد. يتبيّن منهم الزعيم، منذ أن دخل، شابّا جلس يتوجّع من آثار عنف باد على وجهه: دم في الأنف وازرقاق في العينين والخدّين وجرح في الشفتين، وشابّا آخر مقيّد اليدين بالأصفاد خافضا عينيه ينظر إلى الأرضيّة. وكان أحد السكارى متكئا على الحائط وقد أخذته سنة من نوم ينتظر دوره.

من غرفة قريبة كان يسمع تكتكة آلة الرقن وصوتا صارما يستجوب شخصا مّا.

كان الزعيم يحلق في الوجوه يجيل فيها النظر. ثم بدأ يتأفّف معبّرا عن سأمه من الانتظار. صرخ في البهو:

- هيا قيّدو آش تحبّو وسيبوني نروّح...

لم يردّ عليه أحد. كرّر كلامه فسمع صوت العون الجالس وراء طاولة على يمين مدخل المركز يقول له:

- سكّر جلغتك يا خراء حتى يجي دورك.

حينها اتّقد غضب الزعيم وطفق يسبّ جميع أعوان الأمن بأقذع النعوت ويحاول فكّ قيده. اتّجه إلى المكتب المجاور حيث تسمع التكتكة رتيبة ركيكة، وهجم على الكرسيّين والمكتب يركل برجله. وحتّى الضربة التي تلقّاها في قفاه من حيث لا يدري لم تثنه عن مواصلة الصراخ والركل.

التحق أربعة أعوان بالمكتب وجذبوه من معطفه وأسقطوه أرضا. وجد العون بالزيّ المدني الفرصة سانحة للثأر من هذا الوقح المتنطّع الذي يمرّغ هيبة الدولة في الوحل. رموه في غرفة مجاورة بعد أن قيّدوه على كرسيّ، ولكنّ صراخه وسبابه لم ينقطعا بل ظلاّ يتصاعدان من الغرفة المغلقة.

8

فتح سي جاء وحدو باب الغرفة مصحوبا بالعون الذي أشبعه ضربا. سمعه يقول له:

– وراس معزّتك كنّا باش نفرحو بيه فرحة عمره لا راها... أما صحة ليه على عين تتذارى الف عين...

والتفت إلى الزعيم مخاطبا إيّاه:

– نقّص من القباحة متاعك... وإنت عامل فيها عيرود... بالحرام كنا باش ناكلوك ماكلة، ونورّيوك خدّام الحاكم سيدك آش يعملو، ونحطّوك في قلبو... برّة صحّة ليك طلعت مزهّرة عندك.

9

في نهج ابن خلدون لام سي جاء وحدو الزعيم على كلامه الذي سبّ فيه رجال الأمن، وأفهمه أنّه معروف عندهم ومسجّل ولولا أن نبّهه أحد أصدقائه من الشرطة إلى وجود طالب من الكلّيّة في المركز وذكر له الاسم لقضّى ليلته في الإيقاف واتّهم علاوة على السرقة بالاعتداء على موظّف عموميّ أثناء أدائه لمهامه وإحداث شغب في مؤسّسة أمنيّة. وأضاف:

– مازلت شادد توة اللي سرقة الكتب استرجاع حقوق وتأميم؟

سكت الزعيم وظلّ ينظر إلى بار مليء إلى الباب بالشاربين في أوّل نهج مرسيليا. لمح ذلك سي جاء وحدو فقال له:

- اسمع يا زعيم إنت قالق وروحك باش تطلع... وما دواء الكساد كان الفساد. تحب تعمل كعبات؟

ليلة سكر الزعيم

1

كان النادل يعرف سي جاء وحدو فرحّب به معانقا ومقبّلا. عرّفه بالعيفة الطالب المجتهد كما قال له.

في لحظات قليلة صارت الطاولة عامرة بأصناف من النقل: فول مجفّف مصموت، حمّص فوقه رشّات من الكمون، قطع من البسباس، صحن هريسة بربريّة، صحن زيتون أخضر وآخر أسود، قطع صغيرة تشبه البيتزا، جبن أبيض، قطع سفناريّة، صحن مملّحات. أحضر النادل قارورتين خضراوين لكنّ الزعيم اعتبر أنّها مجرّد ماء، لذلك أراد منذ البداية قارورة نبيذ أحمر.

ذهل سي جاء وحدو فقد أمسك العيفة القارورة بيده وأخذ يعبّ منها عبّا كما لو كان يشرب قازوزا. تركه ينهي قارورة النبيذ التي أفرغها في أقلّ من خمس دقائق ثم قال له:

– هاك طلعت بالوعة يا زعيم. ولاّ عندك برشة ما شربتش؟

ضحك الزعيم واعتبر ما في مثل هذه القوارير مجرّد ماء بالمقارنة مع ما كان يشربه في دشرته حين تعلّم الشرب. فقد كان يشتري قارورة كحول من الحانوت الوحيد الذي يبيع كلّ شيء. ويتكفّل ابن عمّه بشراء قارورة كوكا كولا. يذهبان إلى الجبل، في مكان بعيد عن الأنظار يرون فيه القادمين ولا يرونهم. يخلطان الكحول والكوكا كولا فيصبح طعمه مستساغا طيّبا، ويشرعان في الشرب والحديث والنكت الفاحشة إلى أن ينال منهما السكر فيناما في غالب الأحيان على عين المكان. ثمّ صار حفل الشرب جماعيّا حين التحق بهما جمع من أبناء الدشرة.

انفتحت شهيّة الزعيم للحديث مع تواتر الكؤوس التي كان يعبّها عبّا. لم يترك بعد أحاديث قليلة ونكات

خضراء رواها سي جاء وحدو له الفرصة للحديث. صار ثرثارا مع انتشائه المتصاعد بالخمرة.

2

حين سأله عن الجبل الذي كان يشرب فيه لم يكن يدري أنّه يفتح بسؤاله أبوابا في نفس الزعيم كانت محكمة الغلق. فاندفع كالسيل الهادر يصف الجبل وما فيه وحكايته معه. كان الجبل ببعض كهوفه ملجأه عند الأزمات التي مرّ بها، ومرتع الشياه التي كان يرعاها، ومنصّة خلوته حين يكون ضيّق النفس أو منتشيا يأخذ قصبته ينفخ فيها فيردّد الصدى نغماتها أصداء نقيّة صافية تصل إليه من بعيد كأنّها أصوات من السماء. يبدو له الجبل عندها يتمايل ويتهادى على تلك النغمات، وتتثنّى الأشجار وتميس أوراقها وتموج الأعشاب البرّيّة وتجاوبه الطيور صادحة مترنّمة في حفل بهيج من الأصوات الشادية التي يقودها بقصبته.

أخفق الجبل أوّل مرّة فرّ إليه في أن يحميه. كان في حوالي الرابعة عشرة من العمر. فطن إلى حركة غير عاديّة في حوشهم. وسمع وهو يهمّ بدخول الحانوت أباه يتحدّث عن ختان العيفة ويسأل عن سيدنا المؤدّب. فقد نسي القوم في خضمّ شواغلهم أن يختنوه.

كان قد رأى أطفالا كثيرين يتوجّعون من أثر الختان. لم يدر لم كان يعطف عليهم ويعتصر قلبه الألم حين يرى الرجال يمسكون الواحد منهم كفرخ الدجاج ليسهّلوا على مؤدّب القرية مسك آلته الصغيرة للختان.

لاحظ له ابن عمّه أن شكل قضيبه مختلف عن بقيّة الأولاد. سأله عن ذلك وهما يلاعبان الأتان ويتبادلان الوقوع عليها. ظنّ أنّه رفع أمره إلى كبار الدشرة. ذهب إليه مسرعا أشبعه ضربا واتهمه بأنّه السبب في ما سيحدث له.

أخذ طريق الجبل راكضا. لم يجد ابن العمّ بدّا من إخبار أهله الذين رأوا وجهه مدمدما. فشاع الخبر في الدشرة. كان كلّ شيء جاهزا للختان إلّا المختون.

أسرجت الخيل بحثا عن العيفة ولد مبروك. سرعان ما لمحوه يتهادى بين الأحراش. دبّروا خطّة القبض عليه. أحاطوا به من الجهات الأربع لكنّه ببنيته القويّة وقامته المديدة كان يفلت منهم، فإذا أمسكوا به تملّص وولّى هاربا. قضّوا أكثر من ساعتين في كرّ وفرّ إلى أن قبضوا عليه. قيّدوه بالحبال ليسيطروا عليه.

أخذه أربعة من أشدّاء الدشرة بين أيديهم. نزعوا سرواله بصعوبة كبيره. كان يصارع متهزهزا مختلجا. كلّما

اعتقدوا أنه سكن وهدأ يعود إلى التقلقل والهجيان.

أرقدوه أرضا. مسك رجلان يديه وآخران رجليه وبرك أحد البدناء على صدره إلى أن خفتت حركته. تقدّم منه المؤدّب. جلس على ركبتيه بين رجليه اللّذين باعد بينهما الرجلان. صار قضيب العيفة أمامه ضخما عارما. لم ير له شبيها. كان ملتويا لكنّه كبير.

شعر المؤدّب بانقباض شديد. مسك فلقة العضو الذكري ليفصلها عن الحشفة. كانت جلدة خشنة بعض الخشونة. انتصب العضو أمامه. استغفر الله العظيم وبدأ يمسّح بيمناه على الفلقة ليجمعها ويشرع في فصل الحشفة فإذا بالعيفة ولد مبروك يقذف سائله دافقا حارّا على ذراع المؤدّب. ضحك الرجلان اللّذان كانا يمسكان برجلي العيفة ضحكا كادت معه قبضتها ترتخيان فيفلت منهما الشابّ. أحدث المشهد جلبة بين الرجال في الحوش. لعن المؤدّب المختون لعنا، ثمّ حوقل واستغفر وواصل عمله إلى أن أتمّ مهمّته.

ظلّ المؤدّب، طيلة حياته، يحدّث أهل القرية عن الحادثة الغريبة التي شهدها وما حسب أنها تكون لو لم يعاينها بنفسه.

3

ضحك سي جاء وحدو كما لم يضحك من قبل، والزعيم ينظر إليه لا يشاركه الضحك ولكنّه يستملح أن يكون قد أضحكه. طلب الزعيم القارورة الثالثة. أشار النديم إلى أنّه يكتفي بما شرب وأكل. كانت السمكة مع التسطيرة والبطاطا المقليّة لذيذة. أمّا الزعيم فقد طلب كسكسيّ باللحم. قال لسي جاء وحدو:

– ما نعرفش الحوت وما نحبّوش. العيشة عندنا هي الكسكسي والمقرونة في الأفراح والأحزان، واللحمة هي لحمة العلّوش ولاّ البرشني، حتى الدجاج والبقري تعلّمتو في المبيت.

حدّثه عن حياة الشظف التي كان يعيشها. سمّى له أنواع الحشائش التي تنتشر في الجبل وما يصنعون بها لسدّ الرمق. سمّى له البكّ والحارّة واليازول والتالمة وكرع دجاجة والقرنجدي والتلغودة والكزّ والتيفاف. حدّثه عن متعته في تناولها حين فرّ إلى الجبل هاربا من جريمته التي لم تقع. انتبه سي جاء وحدو ينتظر اعتراف الزعيم بجريمة لم يسمع بها.

كانت الحادثة قد وقعت قبل خمس سنوات من دخول الزعيم الجامعة. كان منذ طفولته الأولى يرعى الأغنام مع أبيه ثمّ حين صلب عوده أوكل إليه أبوه مهمّة الرعي أيّام العطل. فقد دخل المدرسة صدفة والعادة أن يُقطع الفتى في دشرتهم عن الدراسة ليعنى بالشؤون الفلاحيّة. لكنّ العيفة كان يبهر المعلّمين ثمّ الأساتذه. فله ذاكرة عجيبة تنطبع عليها الصفحات من نظرة واحدة وتسجّل كلّ الأصوات التي يسمعها. موهبة ربّانيّة جعلته الأوّل في قسمه. كانت المدرسة تبتعد عن دشرتهم بحوالي ستّة كيلومترات. يذهبون إليها صباحا في الحرّ والقرّ جماعة سرعان ما أصبح العيفة يقودهم. فبنيته القويّة وطوله الفارع جعلته يبدو أكبر من سنّه. وكم مرّة نجا من الذئاب التي أكلت بعض أصدقائه. فلم تكن تمرّ سنة دون أن يذهب تلميذ في فم ذئب.

كان العيفة في عيني أبيه الراعي المثالي وهو يراه يكبر بسرعة. وحين أراد قطعه عن التعليم ليساعده في كسب قوت يومه، قطع الطريق إليه مدير المدرسة بنفسه ورئيس إحدى الشعب الدستوريّة في القرية التي تقع فيها المدرسة طالبين منه التراجع عن قراره. أكّدا له بأنّ ابنه سيكون ذا شأن عظيم.

فسّر لهما أنّه لا يستطيع أن يصرف على دراسته من أمواله القليلة، فتكفّل رئيس الشعبة بتدبّر الأمر. برّر قراره بأنّه الابن الوحيد على قيد الحياة، فأقنعوه بأنّ الأيّام تجري فليعتبر نفسه يستثمر مالا قليلا سيُكسبه ما لم يكن يحلم به طيلة حياته. قبل مرغما عن مضض.

وحين أجرى امتحان الباكالوريا وعرف من ابنه أنّه سيكون في قائمة الناجحين بدأ الأب يرى تضحياته تورق وتينع. وحين تأكّد من ابنه أنّه سيكون أوّل الحاصلين على الباكالوريا في الدشرة قرّر، بتحريض من المؤدّب وصاحب الحانوت عمّ إبراهيم ورفاقه في لعبة الخربقة وترشّف الشاي الأحمر، أن يعدّ حفلا بهيجا كبيرا يليق بالخبر العظيم المتوقّع أن يسجّل في تاريخ الدشرة وتباهي به الدشر القريبة.

بقي على التصريح بالنتائج أسبوع. خطر للأب أن يقوم ابنه برقصة الخيل وما تتطلّبه من إطلاق النار من البندقيّة إعلانا لبلوغه مرحلة الفحولة والرجولة التامّة.

استعار من أحد أصدقائه الخيّالة بندقيّة ليتدرّب بها. ما إن دخل الحوش مع صاحب البندقيّة حتّى سلّمه إيّاها يفسّر له مكوّناتها وكيفيّة طلق الزناد وحشوها بالبارود.

بدأ يعلّمه كيف يمسكها. يضعها مستقيمة على كتفه في الاتجاه المعاكس ليده رافعا إيّاها إلى أعلى واضعا

سبّابته على الزناد. شرح له كيف يقلبها لتكون في الوضع المعاكس باتجاه الرجل إلى أسفل. أدارها مرتين. نجح في ذلك. في الثالثة حين أدارها ضغط على الزناد فأصاب أباه. رأى الدم يكسو وجه أبيه. اضطرب. سمع صراخ الأمّ. خرج يجري لا يلوي على شيء. انطلق كالسهم في طريق الجبل. ظلّ يعدو كالحصان البرّي على غير هدى.

4

بعد أسبوع من الاختباء في المغاور والكهوف وصله النبأ اليقين من ابن عمّه الوحيد الذي يعرف الأماكن الخفيّة التي يرتادها العيفة.

كانت الطلقة قد أصابت الكتف لا الوجه كما توهّم العيفة. وأبوه يسامحه على ذلك خصوصا أنّ خبر نجاحه الأوّل في قائمة الآداب بالمعهد قد وصلهم من بعض أبناء الدشر المجاورة.

أقنعه بأنّ الجميع ينتظره، خصوصا أمّه وأباه، ليفرحوا به وأنّ القرية كلّها وفتياتها جميعهنّ لا يتحدّثون ألّا عنه كما لو كان بطلا.

روى لسي جاء وحدو حياته في الجبل خلال ذلك الأسبوع، وكيف استعدّ لقضاء بقيّة حياته فيه. اعتبر تلك الأيّام أجمل أيّام حياته رغم أنّه لم يجد الوقت ليأخذ معه قصبته. أسرّ له بأنّه لو استطاع أن يجد قصبة أخرى لما نزل إلى الدشرة مع ابن عمّه.

كان السكر قد بدأ يفعل فعله فيه. احمرّت عيناه وارتفع صوته وهو يتحدّث وتداخلت الحروف في فمه وكثر تلعثمه. بدت حركاته ثقيلة أحيانا، وأحيانا أخرى كأنّه يستفيق من غفوته. صار يتكلّم بصعوبة، يضرب على الطاولة ليؤكّد أو يعبّر عن غضبه يكرّر الحديث ويعيده. ينسى أنّه قد روى من قبل هذا التفصيل أو ذاك، أو ينسى ما كان فيه من حديث وينتقل إلى حكاية أخرى. أخذ جفناه ينطبقان ورأسه يميل. ترنّح حين أراد أن يذهب إلى الحمّام ثمّ تراجع فبرك في مكانه. تواترت حركاته العشوائيّة. صار يسقط الكأس مملوءة خمرا وهو يبحث عن علبة السجائر أو الولاّعة. يشعل السيجارة من أختها قبل ان يكمل تدخينها.

5

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والربع. صار الوضع لا يطاق فقد انتقل الزعيم من الحديث الهادئ والمزاح والنكت الخضراء إلى التشنّج دون سبب فالثرثرة والصراخ دون مبرّر. لم يعرف سي جاء وحدو أحيانا هل كان نديمه يبكي أم يضحك.

فهم أنّ السكر قد تعتعه. غمز البارمان ليجلب له الفاتورة. أصرّ الزعيم على أن يكمل قارورة أخرى. اعتذر سي جاء وحدو متعللاً بأنّ ابنته مريضة وأنّ المبيت يغلق قريبا أبوابه.

وجد له الحلّ في أن يأخذ معه إلى المبيت قارورة النبيذ الأحمر يكمل بها سهرته. حشرها له في الثنايا الداخليّة لمعطفه. وسار معه إلى شارع الحبيب بورقيبة ليستقلّ سيارة تاكسي توصله إلى المبيت. عانى الأمرّين حتّى يساعده على ألّا يفقد توازنه. عنّ له أن يتحدّث عن بن عليّ ويسبّه حين رأى صورة كبيرة له معلّقة على جدار مقهى أخذه إليه ليشربه قهوة سوداء لعلّها تساعده على أن يفيق من سكرته.

في الطريق كان يتوقّف. يتثبّت من وجه سي جاء وحدو. ويقول له:

– ورأس سيدي القشّاش لا نعرف وين ريت ها الوجه قبل...

ثمّ يتلقّفه بخفّية، يديه الكبيرتين، يعانقه مقبّلا.

صار الوضع لا يطاق. فكّر أن يعود به إلى مركز نهج يوغسلافيا. فالرجل بمثابة الميّت. على الأقلّ ينام هناك إلى أن تطير السكرة. ولكنّ وقوف سيارة التاكسي بعد إشارة واحدة من سي جاء وحدو غيّرت فكرته.

نقد السائق مسبقا ضعف ثمن الرحلة من شارع بورقيبة إلى المبيت، وأجلس الزعيم في المقعد الخلفيّ فاستراح من المصيبة التي حلّت به.

خطبة الزعيم الأخيرة

1

تفطّن السائق إلى أنّه يحمل معه سكران مغمًى عليه. كانت رائحة سكره كريهة خانقة. فتح النافذة متبرّما. ظلّ يستغفر ويلعن اللحظة التي توقّف فيها لهذا السكران ومن معه.

تلصّص أوّل الأمر ناظرا إليه من المرآة العاكسة الداخليّة. كان قد سمع شخيره وهو يصّاعد شيئا فشيئا. رأى جثّة هامدة مال الرأس منها ناحية شبّاك السيّارة. لمحه، في بعض محاولاته الاطمئنان على وضع الراكب، يفتح جفنيه بصعوبة ويبحث عن توازن رأسه المثقل بالخمرة.

اقتربت السيارة من المبيت. لم يعد يفصلها عنه إلّا حوالي خمسين أو ستّين مترا. وصلت إلى أنف السائق رائحة كريهة أكثر من الخمر. خمّن ما عساها تكون. رأى السكران وراءه يبحث عن مقبض فتح الشبّاك. فهم بخبرته مع أمثاله وحدسه معا أنّه يريد أن يتقيّأ.

توقّف على اليمين. كان المكان خاليا أو يكاد، لا يسمع فيه إلّا نباح الكلاب وحفيف أشجار تتلاعب بها الريح.

دار من جهة اليمين ليفتح للراكب الباب حتّى يتقيّأ. ما إن فتح الباب حتّى أخرج من جوفه خليطا لم يتبيّنه. الأمر الوحيد الذي كان السائق متأكّدا منه أنّ الملعون قد تقيّأ في البداية على باب السيّارة وهو ينفتح.

اختلطت روائح كثيرة، رائحة غائط وبول وقيء. كان مشهدا مرعبا للسائق. أخذ في لعنه

ودفعه عنه دفعا. تفقّد الكرسيّ الخلفيّ. كانت الروائح الكريهة تفوح منه فتغمّ الأنف. أشعل الضوء في أعلى السقف يتثبّت. على الكرسيّ بقايا سائل لا شكّ أنّه بول. تأكّد من أنّ المعطف الذي كان يلبسه الراكب

قد أنقذه من مصيبة أكبر. نظر إليه لاعنا مرّة أخرى فتح الشبّاكين الخلفيّين لتهوئة داخل السيّارة وطرد الروائح النتنة الزنخة. عاد إلى مقعد القيادة. ترك الزعيم في المكان الموحش. دار بالسيّارة نصف دورة وقفل راجعا.

2

كانت الحقول القريبة من المبيت ساكنة هادئة لا تسمع فيها إلّا بعض صفير الريح ونباح كلاب يأتي صداه من بعيد. استنشق الزعيم رائحة التراب المبلّل بالندى. استعاد بعض وعيه. حاول أن يتعرّف على المكان لكنّه كان مجهدا لم يميّز في الليل البهيم شيئا عدا أنوارا خافتة تلوح من بعيد. زيّن له سكره الممتزج ببعض الصحو أنّه المبيت. لم يكن مخطئا. اتّجه نحوه في ترنّح متّخذا من الأنوار الخافتة الباهتة الغائمة البعيدة دليلا.

في الطريق الذي بدا له يتمطّى ويتطاول، وجد حائطا مرتفعا بعض الارتفاع. كانت غرفة صغيرة لمولّد كهرباء. اتّكأ عليها بحثا عن بعض الراحة واستعدادا لمشقّة ما تبقّى من الطريق، وسرعان ما وجد نفسه ينهار فترك لجسده المنهك القياد. ظلّ بين غفوة وصحوة.

إذا أخذته سِنَةٌ من نوم استعاد خليطا من الوجوه: وجه ابن عمّه في الجبل يحمل إليه البشارة، وجه أبيه ملطّخ بالدماء بعد أن أطلق عليه الرصاص، وجه سلمى يبتسم له أو تخرج له لسانها، الماعز وهو يتخبّط أوّل ما وضع رجليه في الجزمة، العاهرة وقد ارتعبت بعد أن كمّم فمها، رجل الأمن يركله في مركز الشرطة... وصورة فرج أمّه الذي رآه حين كانت العاهرة تضع الفازلين.

وإذا صحا قليلا تثبّت من مصدر الأنوار الخافتة يقيس المسافة الفاصلة بينه وبين المبيت. ينظر. يتثبّت. يفتح عينيه بصعوبة. يقاوم انطباق الجفنين. لا يرى إلّا غبشا يشوّش عليه الرؤية. يتفطّن إلى ما تحته من أوساخ التصقت بملابسه الداخليّة وسرواله ومعطفه. شعر بآلام تقطّع أمعاءه. رغب في أن يتقيّأ مرّة أخرى لكنّه لم يجد من الجهد ما يكفي. سعل فكاد يختنق بسعاله ولعابه.

3

لم يحقّق الوقت الذي شعر فيه بثقل في الرأس وقدرة أكبر على مواصلة السير. نهض. تحامل على نفسه. كانت تباشير الفجر قد بدأت في الظهور.

وصل إلى مدخل المبيت. كان الباب الحديديّ الكبير مغلقا. طرقه على قدر طاقته. نادى الحارس ولا من مجيب. دار من الجهة الخلفيّة. كان يعرف المكان جيّدا. في ناحية من السور المحيط بالمبيت موضع مرتفع بعض الارتفاع فكّر في الاعتماد عليه ليتسلّق السور. نجح بعد محاولات عديدة في الدخول إلى حديقة المبيت قرب الأرض البيضاء التي يسميها الطلبة سيبيريا. لكنّه ارتطم بالأرض ارتطاما خلّف له كدمات في وجهه وجبينه ورضوضا في يديه ورجليه. أحسّ بأوجاع في كامل بدنه.

ما إن وجد في نفسه قدرة على إتمام مسيره حتّى رأى أمامه عمّ البرني يلوّح في وجهه بعصاه الغليظة الجديدة ويصرخ في وجهه:

– صار إنت يا ولد الحرام، داخل كي السرّاق... وسكران زادة!

طلب منه الزعيم أن يفتح باب المبيت ليلتحق بغرفته فرفض لأنّه لا يفتح قبل السادسة صباحا حسب التعليمات. أمره بأن يبتعد عن باب المبيت للرائحة الكريهة التي تنبعث منه:

– خاري في سروالك كاينّك خنزير... ما لا ريحة فيك تقتل... امش عليّ من هوني.

لم يردّ الزعيم الفعل لا بالكلام ولا بيديه. ابتعد عن حارس المبنيين. لم يدر عمّ البرني كيف تسلّق سلّما مهملا وصعد على سطح المطعم قبالة المبيت وانتصب خطيبا.

4

«يا جماهيرنا الطلاّبيّة العظيمة المناضلة، يا جنود الله في معركة أحد، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أنتم أحفاد الثورة الروسيّة... والصينيّة... المظفّرة وأحفاد أبي ذرّ الغفّاري والحسين بن عليّ،

لقد كنتم دائما نورا على نور، مشكاة البروليتاريا منذ العصور الحجريّة تنير الدرب وإن لم يمسسها الوعي التاريخيّ. إنّ هذا النظام العميل الكافر قد أراد اغترابكم وتغريبكم وفصلكم عن الخلافة العثمانيّة المجيدة وفطمكم عن ثدي العروبة السخيّ. فلم يبق لكم من قائد إلّا البطل صدّام حسين الذي تنهشه ذئاب

الإمبرياليّة وتتآمر عليه وحوش إفريقيا ونمور آسيا لكنّه بإذن الله سينتصر.

الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر... هذا ما قرأناه في صحف ماركس ولينين وستالين وصحائف الدغباجي الذي حلقوا شاربه وعمر المختار مؤدّب الصبيان... عاشت النظريّة الثالثة نبراسا لنا في ثورتنا المستمرّة...

إنّكم اليوم بنضالكم العظيم تستعيدون مجد أمّة صنعت التاريخ وأنتم أيضا تصنعون المستقبل وتكتبون تاريخا جديدا مجيدا وتنصبون خيام الكفاح في كلّ مكان ليستعيد المسلمون مجدهم وتدحر أمّةُ العرب المستعمرين والكذّابين مستنيرة بالفكر الثوري الإسلاميّ القومي الماركسيّ البورقيبي. سنكون نارا على العدوّ وسلاما على الشعب.

يا جماهيرنا الطلاّبيّة العظيمة المناضلة التي دوّخت العالم....

لقد حاصرنا في أرض الجزيرة هنا وفي الشام وفي أرض الكنانة وفي الأطلس عملاءُ بن عليّ والحلاّقة التي معه، ولكنّنا صامدون قادمون لتطهير أرض فلسطين الحبيبة السليبة...

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.

يا عمّال العالم اتحدوا

شعب عربيّ واحد وطن عربيّ واحد

يحيا المجاهد الأكبر، بروح الحبيب نخوض اللهيب»

5

كان البرني الحارس قد أسرع إلى المدير في بيته المجاور للمبيت يعلمه بما كان يجري على سطح المطعم. وحين وصل والزعيم يلقي خطبته طلب منه النزول للحديث معه والالتحاق بغرفته. لم يكن يسمعه ولا يهتمّ به أصلا.

اتّصل بالحماية المدنيّة فوصلت في أقلّ من عشر دقائق. إذ كان مقرّها قريبا من المبيت. رأوه يقلّد بن عليّ وهو يردّ على هتافات الجماهير رافعا يمناه محيّيا أو واضعا إيّاها على قلبه ممتنّا. وقف مترنّحا يصدح بالنشيد الوطنيّ.

صعد أربعة من أعوان الحماية المدنيّة إلى سطح المطعم وحاصروا الزعيم. أنزلوه وأخذته الشاحنة الحمراء خارج المبيت.

6

لم يتفطّن الطلبة إلى شيء. فقد غادر الجميع المبيت عدا طالبين شاهدا من شبّاك المبيت الذي يفتح على سطح المطعم خطبة الزعيم الأخيرة.

وقد نقلا ما جرى يومها إلى رفيقي الزعيم بعد عودة الطلبة من عطلة الشتاء.

لكنّ الزعيم لم يعد: اتّهم بعضهم النظام باختطافه دون أن يفسّروا لماذا فعل ذلك وما الخطر الذي يمثّله عليه؟ واعتبر بعضهم أنّ العيفة (لم يعودوا يسمّونه الزعيم) قد عاد إلى دشرته يرعى شياهه ويعزف على قصبته. وذهب فريق ثالث إلى أنّ الطلبة كانوا مخدوعين فيه فإن هو إلّا مجنون أرجع إلى مستشفى الأمراض العقليّة، مكانه الذي يليق به.

حسم الأمر الرفيقان، المستشار والمسؤول عن البروتوكول، في اجتماع عامّ داخل المبيت عقد للغرض ونقلت نتائجه إلى الكلّيّة: لقد تبيّن أن الزعيم تجاوز حدوده وصار دكتاتورا لا يختلف في شيء عن بن عليّ ولا يَصلُح لأن يقود الحركة الطلاّبيّة في المبيت والكلّيّة ولا يُصْلَحُ. لقد لقي جزاء تخلويضه وتخضريته وأفكاره الشاذّة وتضخّم نرجسيّته. أمّا مصيره فليس من مهامّ الحركة الطلاّبيّة فحتّى إن عاد إلى المبيت فينبغي عزله عن الزعامة.

كانا قد اتّصلا، بعيد عودتهما إلى الكليّة، بسي جاء وحدو للاستفسار عن وضعيّة الزعيم. فأنكر أن يكون على علم بأيّ شيء. لم يبد اهتماما كبيرا بمصيره. أسرّ لهما بموقفه منه ففاجأهما بقوله:

– والله باهت فيكم، أنا كل يوم كنت نحكي معاه، ظهر لي من الأوّل بعقلو أما بالوقت اكتشفت اللي الراجل يهزّ ويسبط ولا زعيم ولا والو، راكم حطيتو مجنون بكوارطو ممثل للطلبة في المجلس العلمي. صحيح كان ناس ملاح وزوّالي وعلى حدّ نيّتو أما مهبول، بالحقّ مهبول ربي يفرّج عليه.

تذييل
ترجمة الزعيم

كتب الباحث الجهبذ، السجين السابق في أحداث الحوض المنجميّ (وقد حصل على تعويضات عن سنوات نضاله) والمختصّ في الحركات الجهاديّة، عبيد الخليفي، في مستقبل الدهر، ترجمة للعيفة بن عبد الله صدرت في كتابه «أعلام الثورة التونسيّة» المطبوع سنة 2035 عن «دار الأحرار والثوّار» في سلسلة «الذاكرة الخصبة» بالصفحة 242. وهذا نصّها:

«العيفة بن عبد الله: من وجوه الحركة الطلاّبيّة التونسيّة ومن أبرز قادة الثورة التونسيّة المظفّرة. أصيل دشرة من المناطق المهمّشة في تونس خلال عهدي بورقيبة وبن عليّ اسمها «ضبّوط القردة». لم يُعرف تاريخ ولادته وإن رجّح البعض أنّه من مواليد سنة 1974. ظهر نبوغه منذ نعومة أظفاره وعرف بين أبناء جيله بذاكرته القويّة ومطالعاته المتنوّعة وروحه الثوريّة. التحق في تسعينات القرن الماضي خلال عهد بن عليّ بالجبال قبل أن يدخل الجامعة للتدرّب على حرب العصابات إيمانا منه بأنّ الثورة ستندلع في كلّ لحظة. وشارك خلال مسيرته الجامعيّة في كلّ النضالات التي خاضتها الحركة الطلاّبيّة في سنوات الجمر. ففرض نفسه، بحسّه الثوريّ ورؤيته النافذة ووعيه المتطوّر، قياديّا في الجامعة التونسيّة ومرجعا للقوى المعارضة الفاعلة. وكان خطيبا مصقعا مفوّها يقود التحرّكات الطلاّبيّة بحنكة وحسن تدبير وروح ثوريّة وقّادة، ممّا منحه ثقة الجماهير الطلاّبيّة التي قاد الكثير من نضالاتها وحقّق معها مكاسب كثيرة رغم قمع نظام بن عليّ الفاشي وتضييقه على المناضلين.

وقد عاش العيفة بن عبد الله منذ سنته الثالثة في الجامعة إلى اندلاع ثورة الكرامة 17 ديسمبر – 14 جانفي 2011 حياة السرّيّة دون أن يتخلّى عن مهامه النضاليّة في تأطير الشباب الثوريّ والتحريض على النظام الحاكم بكتابة المقالات السياسيّة التحليليّة التي تصدرها النشريّة السرّيّة «الثورة القادمة» في أواخر

التسعينات، ثمّ قدّم تحاليل دقيقة مهمّة منذ بداية الألفيّة الثانية نشرتها مواقع إلكترونيّة عديدة كانت تعبّر عن صوت المعارضة التونسيّة، مثل «تونس الثورة» و«ضدّ الدكتاتور» و«الصبح القريب». واشتهرت كتاباته عن الوضع بالمناجم قبل انتفاضة الحوض المنجمي وبعدها حيث قدّم تحاليل دقيقة عن أسباب اندلاعها وحدودها وأسباب إخفاقها في الإطاحة بالنظام. وعرف كذلك بمعارضته الشديدة لائتلاف 18 أكتوبر بعد أن سانده في البداية معتبرا أنّ التناقض الرئيسي هو بين قوى الثورة والنظام، لكنّه سرعان ما رأى في هذا الائتلاف التقاء بين الإصلاحيّين البورجوازيّين الصغار والقوى الدينيّة الفاشيّة.

وقد كان العيفة بن عبد الله من أوائل المدوّنين التونسيّين، إذ أنشأ مدوّنة بعنوان «الحقيقة وحدها ثوريّة» فعرف الناس نضاليّته إذ كشف عمّا يحدث في القصر من ألاعيب وتحالفات وصراعات، كما برزت حرفيّته وكفاءته في كشف الفاسدين وتوثيق فسادهم حتّى ظنّ الأمن السبراني وبطله عمّار 404 أنّه مطّلع على المعطيات الموجودة في قواعد بيانات الداخليّة. إذ نشر في مدوَّنته صورا عن علاقات مخلّة بالأخلاق بطلتها أستاذة جامعيّة تجمّعيّة وبيانات عن شركة على ملك من اعتبرها مناضلة عميلة للنظام. ولم يسلم منه بعض رفاقه القدامى إذ قال عنهم الحقيقة كلّها كاشفا عن العميل منهم وناشرا لفيديوهات إباحيّة بطلتها إحدى رفيقاته، ولم يتوان عن فضح من باعوا القضيّة من أصدقائه لقاء بعض القوارير الخضر وكشف المثليّين منهم ومستهلكي الزطلة لأنهم لا يصلحون للثورة بسبب فساد أخلاقهم. وسار على هذه الدرب في الفضح وكشف الحقيقة دون أن يخشى لومة لائم.

وظلّ العيفة بن عبد الله يتابع الوضع في تونس ويكتب عنه دون كلل أو ملل إلى أن اندلعت الثورة التونسيّة، فخرج من السرّيّة ليشارك في الثورة التي كان من المنظّرين لها والمحرّضين عليها.

وقد كان للعيفة بن عبد الله دور حاسم في اعتصام القصبة الأوّل والثاني، وهو من دعا إلى الاعتصام الثالث الذي أفشلته الدولة العميقة بتحالف مع الأحزاب غير الثوريّة. لذلك أسّس حزب «الشعب الثائر» وكان برنامجه يهدف إلى نصب المشانق للدستوريّين والرجعيّين والفاسدين لتطهير تونس منهم. ومن أهداف حزبه تفكيك مؤسّسات الدولة العميلة، خصوصا منها أمن الدولة والمخابرات، وحلّ وزارة الداخليّة ليعود الحكم إلى الشعب ويعاد توزيع السلطة ورأس المال (خصوصا البترول والملح) على الجماهير، وإسناد الأراضي الاشتراكيّة إلى الفلاّحين، والقيام بثورة ثقافيّة يُحاكم فيها أبناءُ الثورة المثقّفين والجامعيّين الرجعيّين والنخب التي ساندت بن عليّ.

وقد رفض حزبه المشاركة في انتخابات المجلس التأسيسيّ سنة 2011 معتبرا أنّها لا ترقى إلى مجرّد ديكور للديمقراطيّة البورجوازيّة، ولن تحقّق مطالب الشعب الثائر. وذهب العيفة بن عبد الله إلى أنّ الحلّ يكمن في تنصيب لجان حماية الثورة مؤتمنةً على تحقيق أهدافها بدل الهيئة العليا لتحقيق أهداف الثورة والإصلاح السياسي والانتقال الديمقراطي التي ترأّسها الأستاذ عياض بن عاشور. ونادى بحكم الشعب نفسه بنفسه من خلال مجالس شعبيّة منتخبة ديمقراطيّا تتمتع بالاستقلال الذاتي تحدّد المشاريع التنمويّة في الجهات وتسهر على تطبيقها ثمّ تنتخب الجماهير من أعضاء تلك المجالس برلمانا سمّاه المجلس الثوريّ الجماهيريّ الكبير يشرف على رسم سياسة الدولة وتنفيذها. وقد اعتبر الأحزاب التي شاركت في الانتخابات أحزابا رجعيّة لا خير فيها، ولا تختلف بعد الثورة عن حزب التجمّع الدستوري الديمقراطيّ المنحلّ. فهي تأتمر بأوامر السفارات والمانحين الدوليّين وبلدان عديدة تدخّلت في القرار الوطني التونسيّ.

وإثر انتخابات 2011 ناصب العيفة بن عبد الله العداء للترويكا ولجميع الأحزاب وللإعلام والصحافة ثمّ اختفى شيئا فشيئا من المشهد السياسيّ التونسيّ.

ومن أشهر تنظيراته في تلك الفترة نظريّته عن الأزمة الثوريّة وملخّصها: «إنّ الثورة الحقيقيّة هي افتعال أزمة سيميولوجية في نظام العلامة الكمبرادوري- المقاولاتيّ - النيوليبراليّ بضرب جذوره الأنطولوجيّة وأسسه الابستيمولوجيّة حتّى لا نعيد تفعيل النظام بتكرار دلالاته عن طريق ثورة تلقائية مبتورة لا تقودها الإيديولوجيّة الثوريّة. لذلك على القوى الثوريّة الأصيلة أن تستوعب نظام العلامة المهيمن بمحاكاته لوضع اليد على المعنى المحرّف، بما يسمح بتجاوزه عن طريق تغيير علاقات القوة التي فرضها النسق المهيمن. لذا علينا أن نحاكي العلامة بخرقها وتفكيكها وإعادة تشكيل المعنى وذلك بتغيير الواقع عن طريق ثورة البراكسيس التي تقودها النخبة السياسيّة الإيديولوجيّة الراديكاليّة وتؤطرها وتطبقها البروليتاريا الواعية. حينها ستكون الأزمة المفتعلة هي أزمة داخل نظام العلامة المهيمن وهو ما لن يحدث دون البحث في أصل علاقات القوة التي صنعها الخطاب المهيمن عبر تراكم إنتاج الثنائيات (خوانجي ضدّ الكفّار والملاحدة، ومتخلف ضد متحضّر، وفلاق ضد مستعمر محرّر، ويساري مخرّب ضد بورقيبي بنّاء... إلخ)، ولا يستوي ذلك دون نظرية علميّة ثورية تعتمد باراديغماتها على التثقيف البروليتاريّ».

ورغم الملفّ الذي تقدّم به إلى هيئة الحقيقة والكرامة وتنزيل اسمه في بداية سنة 2019 ضمن المشمولين بجبر الضرر ممّا يعتبر اعترافا بنضاله الثوريّ، فقد اختفى تماما ولم يعرف له مكان. لكنّه يظلّ من أبرز

رجالات الثورة التونسيّة المجيدة وزعيما كبيرا خالد الذكر من أهمّ من عرفت تونس من زعماء في تاريخها».

Table of Contents

1. الصفحة الأولى
2. حقوق النشر
3. صفحة العنوان
4. فاتحة
5. الغريب
6. ميلاد قائد
7. يوم من حياة الزعيم الجديدة
8. من حكمة الزعيم
9. من أيّام الزعيم يوم النصر
10. من أيّام الزعيم يوم الجلاء
11. من معارك الزعيم معركة الكرامة
12. خطّة الزعيم في معركة العطش
13. الزعيم وحرب المواقع
14. سأم الزعيم
15. ليلة سكر الزعيم
16. خطبة الزعيم الأخيرة
17. تذييل ترجمة الزعيم